المشرق

سيرة الحبر الطيّب الذكر

عبدالله قراعلي الماروني الحلبي

مؤسّس الرهبانيّة اللبنانيّة المارونية ومطران بيروت (١

كتبها تلميذه وخلفه في الرئاسة العامّة الأب توما البودي

ونشرها بالطبع لاوّل مرّة وعلّق حواشيها الاب انطون رباط اليسوعي

تَوْطئة

اورثنا الاب المذكور بالفضل والنبرة لويس كفاريوس ابوجي اليسوعي اوراقاً وتصوصاً كان استنسخها في رومية منذ نصف قرن منها هذه التبذة المفيدة في سيرة احد مشاهير الموارنة وهو الحبر المفضال عبدالله قراعلي المؤسس الاوّل للرهبانية المارونية اللبنانيّة ورئيسها العام مدة ست عشرة سنة متوالية وقد سُقف على مدينة بيروت فرعاها اربعاً وعشرين سنة بنبرة رسولية كما قام باعباء الرئاسة على الرهبان بتقوى وزهد وحكمة جعلته مثالاً حيّاً لمعاصريه الزاهدين ولمن حذا حذوهم. والنسخة التي بيدنا منقولة عن كتيّب من مكتبة المدرسة المارونية في رومية وهي تتعلق بسيرة هذا الاب الجليل وفضائله الرهبانية الى ان جُعل استفنا. وقد جاء في آخر نسختنا ما يلي: «هذا الجزء اتجد في مكتبة مار انطونيوس الموارنة في رومية. وان اردت الباقي اسأل عنهُ في مكتبة لوزيه. والله اعلم». فيا حبذا لو اطلعنا بعض العارفين على تتمّتها لننشرها حفظاً للآثار التاريخيّة من

---

١) اطلب تاريخ الطائفة المارونية للبطريرك اسطفان الدويهي (٣٥٦ و ٣٦٢–٣٧٧) وتاريخ دير مار انطونيوس قزحيا للاب نعمة الله الكفري (المشرق ٤: ٣٦١) وسيرة المطران جرمانوس فرحات للقس جرجس منش (المشرق ٧: ٤٩ و ١٠٥ و ٢١٠) وبرنامج اخوية القديس مارون لجناب يوسف افندي خطار غانم (١١٤–١٢٣) ودراسة المطران عبدالله قراعلي في تاريخ الرهبانية (نشر قسماً منها الاديب رشيد افندي الشرتوني في سلسلة بطاركة الطائفة المارونيّة ١٨٣–١٩٥) الخ

الضياع . اما كاتبها او سلفها فهو القس توما البودي (والمحدثون يسمونه البودي) الحلبي تلميذ الاب عبدالله وصديقه وموضع سره وثقته ترهب في ١٠ آب سنة ١٧٠٦ كما جاء في النص وعُمِّل سنين طويلة وكيلًا عامًا وتقلب في كثير من الوظائف وانتُخب رئيسًا عامًا سنة ١٧٣٥ – وهو الخامس في العدد – وجدد لهُ الرهبان الرئاسة سنة ١٧٣٨ وكان وقتئذٍ في رومية يسعى بانبات المجمع اللبناني . وكانت وفاته عام ١٧٤٢ (١ وهي السنة التي فيها فاضت روح معلمه المطران عبدالله (٢ . قال الاب نعمة الله الكفري نقلًا عن المطران جرمانوس فرحات : « كان [القس توما] واسع العقل حسن الفطنة والمعاشرة فصيح اللسان » وقد خدم رهبانيته احسن الخدم واقتنى لها ارزاقًا تسهل على اخوانه الزهد بحاجات المعيشة لينكبوا على اعمال القداسة والبر (٣

نبتدي بعونه تعالى نكتب سيرة الملك الرحمة الحبر النبيل سيدنا المطران عبد الله قراعلي (٤ الحلبي المؤسس الرهبنة اللبنانيَّة حسبما ارخها المرحوم القس توما البودي تلميذه الذي كان معاصرًا لهُ (٥

فسيدنا وابونا عبدالله ولد في حلب من والدين مشهورين بالتقوى والسيرة الصالحة سنة ١٦٧٤ (٦ وكان اسم ابيه (٧ ميخائيل واسم والدته (٨ والمذكوران كانا موسرين بالمال والثروة الدنيوية (٩ ومشهورين بعمل الاحسان والعبادة فسمّياه عبد الاحد وحين

---

١) كذا في مختصر تاريخ الرهبانية اللبنانية للذي الحقهُ رشيد افندي الشرتوني بتاريخ الدويهي (٣٧٣) . وفي بعض ما اطلعنا عليهِ منقولًا عن سجلات الرهبانية انهُ توفي في دير رومية في ٨ شباط ١٧٦٨ ولهُ من العمر ٨٤ سنة وفي سجل دير مار الشمع ان الاب جبرائيل فرحات رئيس الدير البسكنتا سنة ١٧٠٧ ولهُ من العمر عشرون سنة فيكون عمره عند موته نحوًا من ٨١ او ٨٢ سنة

٢) في سجلات دير اللويزه عن سنة ١٧٤٢ ما يلي : « انتقل الى رحمة الله قدس سيدنا وابينا ومؤسس رهبنتنا اللبنانية المطران عبدالله قراعلي الحلبي الملك بالرحمة في ٦ كانون الثاني سنة ١٧٤٢ ولهُ من العمر سبعون سنة . وكانت وفاته في زوق مصبح ودُفن في دير اللويزه »

٣) اطلب تاريخ الدويهي (٣٧٣) والمشرق (٢ : ٢٦٤ و ٢٦٧) وسلسلة البطاركة (١٨٩)

٤) كذا في الاصل وفي رسائل المعاصرين . وقد اعتاد المحدثون كتابته بالهمز قرأأبي وهي لفظة تركية معناها اليد السوداء (برنامج ١٢٣) وعندنا انهُ لقب على بعائلة المترجَم المارونية كما علق غيره من الالقاب التركية بكثير من العائلات الحلبية

٥) هذان السطران للناسخ لا للمؤلف

٦) وفي البرنامج انهُ ولد في ٨ ايلول ١٦٧٢ فيكون عمره عند موته سبعون سنة كما سبق

٧) في الاصل « اباه » على اننا اصلحنا بعض الاغلاط النحوية تاركين الكلام على ما هو

٨) بياض في الاصل

٩) كتب المترجَم عن ذاته انهُ عندما اتى لبنان للترهب لم يكن يملك شيئًا من المال

انتشا وضعاه عند احد المعلمين الثقاة ليتعلم اللغة العربية والبريانية فاستدام على ذلك الى ان بلغ السنة الثانية عشرة من عمره . عند ذلك ابتدا ان يقرأ في كتب الآباء القديسين الزهاد من انطونيوس وجايه الى ان بلغ الاربعة عشرة سنة من عمره . فظهرت فيه حينئذٍ علائم الزهد والعبادة . فعينه ابوه ليتعلم الاعراب كالنحو والصرف (١ ورغب ابوه ان يعلمه ايضاً اللغة الايتاليانية رغبة في صناعة التجارة ومعاطاة البندر . لان والده كان يلحظ في هذا الفتى عقلاً ثاقباً وحشة زائدة ولهُ قبول عند العالم والدون . واما عبد الاحد اي ابونا المشار اليه (٢ لما انتشا الى السنة السادسة عشرة من عمره فكان يتزايد فيه الشوق الى الطريقة الرهبانية وكان يفتكر سراً كيف يكون العمل لبلوغ قصده لان في مدينة حلب وبرّها لم يكن ديارة للرهبان انما الخبر الشائع ان في جبل لبنان موجود رهبان وديارة باسم ابينا انطونيوس . وعبد الاحد المشار اليه لم يرَ لهُ سبيلاً للتوجه الى تلك النواحي لان المسافة بعيدة أنوف من عشرة أيام ومع هذا لم يكن لهُ جراءة ان يكلم اباه وامه ويظهر لهم رغبته مع انهم كانوا ذوي صلاح . لان والده ما كان يمكن ان يطلقه الى بلاد مجهولة عندهم وهو بهذا السن . فاستدام عبد الاحد في رغبته هذه الّا انهُ تارةً كان يرتخي وتارةً يشتد في عزمه ويرغب . وكان لهُ عشرة من نسبته وخاصةً ثلاثة انفار منهم . الذين فيما بعد ترهبوا جملةً كما يأتي ذكر ذلك في محله

قدام هذا الفتى على هذه الحال الى ان بلغ من العمر ثمانية عشر سنة فباحكام الهية مرض مرضة ثقيلة وبعونهِ شفي منها وحين كان في الفراش وليس لهُ قوة على الخروج كان يقرأ كتباً روحية للتسلية كما سبق القول . وانتهى الى قراءة كتاب بستان الرهبان واكليمكوس (٣ وكان يتأمل سيرة الآباء مثل ابينا انطونيوس ومكاريوس وارسانيوس ومن ماثلهم فتحرك قلبه بحركة فاقت ما قبلها من الحركات وعزم العزم

---

١) واحصاه الاب لويس شيخو (المشرق ٦ : ٩٩٦) والقس جرجس منش (المشرق ٦ : ٧٧٤) في عداد من قرأ على الشيخ سليمان النحوي والخوري بطرس التوّلوي الماروني

٢) عبد الاحد اسمه في العماد وفي الخارج عبدالله فاذا رأيت الاسمين لا تعجب وانما المعروف عند العالم والدون وفي الحيال وغيرها باسم عبد الله (للمؤلف)

٣) هو مار يوحنا السلمي صاحب سلّم الفضائل

الاكيد في ترك العالم والتجند الى حمل نير المسيح . فبعد شفائه من المرض رجع الى الاجتماع بعشرته وهم جبرائيل ابن توما حوا ويوسف ابن البتن وجبرائيل ابن فرحات (١ والمذكورون جميعهم كانت مذاكرتهم على الدوام في امور روحية وقراءة كتب القديسين ورغبة الزهد في العالم . مع انهُ ولا واحد منهم كان اطلع رفيقه على سريرته الروحيَّة الحقيقية

فحدث ان يومًا ما اضطرمت في قلب عبد الاحد نار حب الله واضناه الشوق الى الزهد في العالم وحمل نير الرب واتباع سيده ومع ذلك كان حائرًا كيف يكون العمل ليبلغ اربه لان بلادنا جميع حكامها غير مؤمنين بامانتنا كما تفهمون ذلك فالتزم انهُ افشى بسرّه الى جبرائيل ابن توما حوا واخبره عن نيته وعزمه فرد لهُ الجواب اعني جبرائيل حوا بقوله لهُ هكذا : ان هذه هي نيتي ايضًا وان اردت نكون جملة . فتعاهدا بالقول . واما يوسف ابن البتن فعرف بالرمز نيتهما وعهدهما . وصار الرضا بينهما اعني جبرائيل وعبد الاحد بان كل واحد منهما يستأذن والده

فجبرائيل حوا اذن لهُ والده توما برغبته ومطلوبه واشار اليهِ بان يأخذ معه بضاعة ويمضي بها الى طرابلوس لانها مينة جبة بشراي الموجود بها الكرسي البطريركي . ويومئذٍ كان البطرك اسطفانوس الدويهي من قرية اهدن وكان بالاصل نسيبًا لبيت حوا . وكان كلام والده هكذا : انك تتوجه بعلة التجارة وتزور وتكشف تلك النواحي فان امكنك المكث واختبرت ذاتك بالثبات فلك ان تمكث لانك مطلوق الارادة . واوعده والده بانه يعينه مدى حياته . فاتى جبرائيل الى عبد الله واخبره بالذي صار وانهُ صار يتوجه كما ذكر اعلاه . فتشجع عبد الله اي عبد الاحد بالمشورة الى والده واظهر لهُ نيته وعزمه وان مراده يتوجه مع جبرائيل فمانعه والده لانهُ كان يراه رقيق الجسم . واولى بنا ان نقول ان الطبع كان متغلبًا عليهِ في فرقة ولده . واذ رأى ذلك عبد الله ارتمى على اقدام والده باكيًا . واقتصارنا يكفي لفهمكم . اخيرًا بعد اللجاجة الزائدة وعدهُ والده انهُ يرسلهُ يزور القدس الشريف على درب الشام وبعد زيارته يرجع على درب البحر ومن يافا ينتهي الى طرابلوس ويزور الكرسي البطريركي وغيره من الديورة ويختبر ذاته هل لهُ قوَّة على سكنى البراري وما شاكلها

(١ اطلب ما ذكرناه من الكتب في الحاشية (ص ٦٢٥)

فتوجه جبرائيل حوا ومعهُ تجارته الى طرابلوس من غير ان احد يعرف سره الّا والديه وكان خروجه سنة ١٦٩٣ في اول تشرين الاول . وثاني سنة اي سنة الف وستمائة واربع وتسعين خرج عبد الله من مدينة حلب برضى والديه الى زيارة القدس الشريف ومعهُ يوسف البتن ومن هناك جاء الى جبل لبنان مع يوسف المذكور وتواجها مع جبرائيل حوا (١ وتوجهوا جملةً الى دير قنوبين واخبروا السيد البطريرك بغيتهم فابتدا يهزأ بهم بقوله لهم: انكم انتم الناس ذوو تنعم ومعاش الجبال قشب والحروب في البلاد وسفك الدماء متصل هل يمكنكم احتمال هذا واكمال مطلوبكم والحال انكم عاجزون عن شغل الفلاحة والزراعة وانتم ناظرون معاش الرهبان وسيرتهم في هذه البلاد (٢ . فاجابوه ان مرادهم ان يجمعوا قانونًا من رسوم الآباء انطونيوس وباسيلوس وغيرهم وينشئوا طريقة لهم ولغيرهم . فضحك البطريرك بيديه ضاحكًا ومستهزئًا بهم بقوله هكذا: الآن تحقّقت جنونكم . فثبت المشار اليهم على عزمهم وابتدأوا يترجون البطريرك بكل تواضع ومع هذا كانوا يعطون اشارات رغبتهم وجعلوا ان جبرائيل حوا الذي هو على القول الله نسيب البطريرك منذ القديم ان يخاطب البطريرك وحده عسى يعطف خاطره الى الميل لمساعدتهم على اكمال مقصودهم لان بغير يد البطريرك لا يقدرون ان يبتدوا في الاعتناء بما هم راغبون . اخيرًا استمدوا خاطر البطريرك بواسطة البعض من مطارنته فانعطف الى مطلوبهم بشرط ان يبتدوا بعمل ما يرغبون بحيث ان سكنتهم تكون مُرت موزا وهو مكان باسم دير خربان (٣ ورغبة البطريرك ان اذا صار

(١ التقيا بجبرائيل حوا في زغرتا يوم خميس الحسد سنة ١٦٩٤

(٢ كأني بالبطريرك الدويهي سبق فرأى ما سيحدث من الخلاف بين الحليين واللبنانيين الذي انتهى بانقسام الرهبانية الى شطرين. قال احد مؤرخي الرهبانية اللبنانية في كراسة خطية: « انّ اخص اسباب هذه الاختلافات والفتنة هو اختلاف الطباع والعوائد من حيث ان الحليين كانوا غير متأنين على الاشغال الشعبية والمدنية المتشعثة بل لهم التدبير . والبلديين بخلاف ذلك »

(٣ كان الدير خرابًا يأوي اليهِ كهنة طاعنون في السن يُسمّى انطونيوس — وجاء في تاريخ الدويهي (٣٥٦) : « في سنة ١٦٩٥ في العاشر من تشرين الثاني لبس اسكيم الرهبانية الثلاثة الذين قدموا من حلب وهم القس جبرائيل حوا والشماس عبد الله بن عبد الاحد ويوسف بن البتن فارسلهم ان يقيموا بدير مُرت موزا في اهدن » وجاء في البرنامج (١١٩) : « وفي صيف سنة ١٦٩٥ قصد ابوا جبرائيل حوا دير قنوبين بعد ان زارا القدس والتقيا من السيد البطريرك

غير روحي واقلّ ما جـدي من مداخيل اهلهم من حلب يكون في قرية اهدن لانها مولد البطريرك (كما ترون شرحه في تواريخ الرهبنة ٤) (١ لان الان غايتنا سيرة ابينا بوجه العموم

فنقول من بعد نشوئهم دُرت مورا ومار اليشع (٢ وتلك الخاصمات التي حدثت (٣ فاستمر عبد الله باقياً في دير مار اليشع وانشا الطريقة بمسرة الله. وهذا المغبوط ابتدا بالعمل قبل ان يعمل (والصواب : يعلّم) والانفار التي كانت عنده اولًا القس يوسف البتن المذكور انفًا. ثانياً الاخ موسى بلوزاني هذا ربي اكثر ايّامه في حلب (٤ وباقي انفار قليلة عدلنا عن ذكرهم لئلّا نطيل الشرح (٥ فابتدا في سيرة تشفة في جميع حركاته

اولًا كان عمل عوزال (٦ من عيدان حطب وقش وكان ينام عليه من غير فراش وكان يعقره ويوجعه كثيرًا واستدام على هذا الحال سنتين. وغطاه كان بنوع انهُ يدفى

نسيبها ان يسم ولدها قسيساً بعضرتها ليفرحا به قبل افتراقهما عنهُ فاجاب ملتمسها «. اما تسمية البطريرك الدويهي لقرائلي عبد الله بن عبد الاحد فظنهُ خطأ لان كلا الاسمين لمسمّى واحد

١) لا نعرف شيئاً عن هذا التاريخ ولعلهُ لا يزال محفوظاً في بعض الاديرة

٢) دير مار اليشع التي في سفح الوادي المقدّس حذاء قرية بشرّاي وفي ١٤ ايلول سم عبد الله كاهناً وأقيم رئيساً على هـذا الدير . وقد انتخبوا جبرائيـل حوا رئيساً عاماً عليهم في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٩٥

٣) قد لمح اليها صاحب التبذة وغيره من المؤرخين فنُزل جبرائيل حوا من الرئاسة العامة وخلفه المترجَم الذي صار المؤسس الاخص للرهبانية وسعى باثبات قانونها من الطيب الذكر البطريرك اسطفان الدويهي (١٨ حزيران ١٧٠٠)

٤) عند نسيبه المطران جبرائيل البلوزاني الذي اسس الرهبانيـة الانطونيانية سنة ١٧٠٠ وانتخب بطريركاً خلفاً للبطريرك اسطفان الدويهي. وقد ذكر المؤرخون مذبن الراهبين في عداد الافاضل الذين تسطرت البلاد بمرف نقوامم

٥) هذه اسماء الرهبـان الاولين نقلًا عن السجلّات : في ١ تموز ١٦٩٦ ألبس القس جبرائيل حوّاء الاسكيم اثنين من الشبان : الياس بن حلب ويعقوب من غزير. وفي ١ حزيران ١٦٩٨ ألبسهُ حنا الباني ويعقوب الحلبي وعبـدالله البشراني وموسى البلوزاني وجبرائيل قرحات الحلبي. وذلك في دير مرت مورا اهدن

٦) العوزال عقد من عيدان مرتبطة بعضها ببعض يطلق بين اغصان دوحة ويفرش بالقش فيُنام عليه ايّام الصيف

لا غير. فلحقه اولئك السعداء ارفاقه كل منهم على قدر قوته حسب ما كان يرشدهم. ثانياً من حيث صلواته العقليَّة في اول مبتداه كان يصلي على بكرة ساعة وبعد صلوة السواعي نصف ساعة والمسا ساعة. واما هذيذه فكان متصلاً ولم يخل به جملة من رهبانه وفي كل ليلة كان تلاميذه يعرضون ويكشفون له افكارهم وما يعرض لهم من صالح وطالح وبعد ذلك كان يعطي لجسمه راحة في الرقاد وهو جالس الى نصف الليل. في البدء كان يسند ظهره الى الحيط قليلاً وفيما بعد امتنع عن السند على الحيط ومتى قرع الناقوس كان يسبق الجميع الى الكنيسة وقد اجتهد البعض من الرهبان ان يسبقه الى الكنيسة فما امكنهم. وكان يبتدي الصلوة الفرضية بهدوء مرتلاً بنوع خشوعي والذي يحضر ويسمع الصلوات يتحرك قلبه الى العبادة طبعاً. وبعد خلوص صلوة الليل كان الرهبان تمضي الى مراقدها واما هو فكان ينتصب في الصلوة في الكنيسة امام المذبح الى وقت صلاة الصبح وقتاً جائياً ووقتاً واقفاً. بل قبل وقت صلوة الصبح ببرهة قليلة كان يخرج من الكنيسة لعمل واجبات الطبيعة وبعد ذلك يدخل الى قلايته التي كان لها بابان الواحد سري ومنهُ كان تدخل الرهبان لعنده لكشف افكارهم. وحين كان يقرع الناقوس لصلوة بكرة كان يخرج من باب قلايته الثاني المشاع للكل احد يعرف عمله. واستمر على هذا العمل أنوف من سنتين من غير ان يعرف احد به. ومن حيث نسكه فكل شيء يعرف انه يستلذ به اذا اكله كان يمتنع عنهُ بافراز هذا مقداره حتى ان ما كان يقدر يكتمه وكان ياكل كل اربع وعشرين ساعة مرة في العشا وحين يكون في المائدة كان يبتدي الاكل قبل الكل وينتهي بعد الكل وكان حدّ اكله نصف الذي كان يوضع امام الرهبان من الاطعمة والخبز كان ياكل رغيفاً واحداً وزن نصف اوقية واحياناً يكسر من الثاني قليلاً والذي كان ينظر اليه يظن انهُ ياكل اكثر من الرهبان نظراً الى ابتداه وانتهاه. ومن حيث ضنك جسمه يكفاكم هذا القول وهو ان ركبه كانت تكلكلت من ركوع المطانيات التي كان يستعملها في الكنيسة في الليالي. يشهد بذلك اصابعه التي كان يسند عليها في السجود والقيام التي تكلكلت ايضاً وربما البعض منكم لحظ ذلك فيه. وكان مجتهداً على قمع جسمه وضبط حواسه بنوع الذي مثلي عاجز عن توضيحه لكم. وانما اقول واحدة وهي غيرته على حفظ الطهارة بنوع يفوق عقلي شرحه لكن يكفاكم واحدة

وهي الى اي حدّ وصل في الطهارة فاذا لحظتم في تفسير القانون الذي فسره (١ في درجات الطهارة فلحظكم قادر على ان يفهم من القليل كثيراً لان ذلي عاجز عن برهان ذلك

فهذا المغبوط كان مفعماً من الله حكمةً وافرازاً ونسكاً ذا عقل ثاقب وعلم راسخ فصيح اللسان بليغ المعاني محبوباً من كل من يراه مهيباً لان كل من كان يواجهه كان يعتبره اعتباراً عظيماً وكان يستهابه وكان يحس في ذاته خشوعاً وميلاً الى العبادة. والحال ان خلقته بالذات ما كانت جميلة لانه كان اسمر اللون رقيق الجسم بلحية خفيفة سوداء بوجه طويل انكش بزيادة طويل القامة عشوق يداه طوال رقيقتان طويل الانامل راسه كبير عيناه ناتئتان ذو جبهة عريضة معبس عبس فرح احتشامي دليل العبادة والخشوع ومع هذا لمّا كان يواجه احد حكام تلك البلاد المشهورين ابناء حماده... بنا ان دير مار اليشع الذي هو مبدا الديورة كان في بلادهم فكانوا يغارون عليه وعلى الرهبان وعلى قيام القانون الذي انشاه عبد الله بزعمهم ان عبد الله الرئيس من اتقياء الله ورهبانه مثله ومهما كان يتكلم مع المشار اليهم يصدقونه ويعتبرونه بزعمهم ان عوّلاء الرهبان من زود تقاواتهم لم يتكلموا كذباً ولا كلاماً واهياً

فجميع ما ذكرنا الان قد تحقّقته من الرهبان الذين كانوا مترددين معهُ ومنهُ شيء قد تحقّقته بالنظر لما حصلتُ في الرهبنة ومنهُ نتجت ان الذي ذكروه لي هو قليل من كثير. فانا توما البردي المسكين بسيرتي الراهبية دخلت الى الرهبنة في دير مار اليشع لاصير راهباً فكان ابو الدير المذكور جبرائيل فرحات الحلبي المولد وفي الاصل بشراني (٢ وكان دخولي في الدير في عشرة ايام من شهر آب سنة ١٧٠٦ وابتديت في ١٤ من الشهر المذكور فابونا عبد الله ما كان حاضراً بل كان في دير مار يوحنا رشيا الذي افتتحوه في تلك السنة جديداً وبعد نحو شهرين توجه ابونا المشار اليه الى دير مار اليشع وحين وصوله وملاقاة الرهبان لهُ ومن جملتهم كنت انا فحقاً اقول يا ايها

---

١) يشير الى الكتاب المنون بـ المصباح اللبناني » شرح فيه عبدالله قراعلي القانون
٢) وفي البرنامج انهُ حصروني الاصل

القارئ الحبيب اني من حين نظرته وقدمت في وقتي لاجثو امامه تحققت في سريرتي ان الله عاطيه موهبة في معرفة الاشياء الغيبة عن غيره لانهُ حين نظر اليَّ سأل الاخوة: من يكون هذا. فسموني لهُ. فقال لي دون غيري من المبتدئين الموجودين: اصحَ يا اخي توما واعرف الى اين جابك الله. فقد عرفت القارئ بهاتين الكلمتين ليتحقق ويصدق ما انا عتيد ان اكتبه من الآن فصاعدًا. وعلى كل حال مذموم الراهب الذي يفتخر بفضائل ابيه ومرشده ورئيسه واعمالهُ في الخلاف لكن الحق الصريح يجب ان يكتب لئلا تعدم معرفة الصالحين وبعده الخير الذي يحصل عليه العباد من امثال سيرتهم الصالحة

وحال وصول ابينا المشار اليه الى الدير كان مريضًا مرضًا ثقيلًا حتى ان الرهبان سندوه في دخوله الى الدير. فأمرت انا من ابي الدير ان اعمل لهُ عشا لان الرهبان كانوا تعشوا فكان عشاه من الرز بسمن ومع كل مرضه ما اراد ان ياكل كل الرز المذكور والحال كان الرز صحن من الصحون التي يوضع فيها اللون الواحد على المائدة وعدم اكله لانهُ رآه دسمًا وادامه وافرًا. ولكي يخفي ذلك عن الناظرين اشار ان ادامه كثير وقال: بالكم من هذا البدل لئلا يخرب الدير. وفي اليوم الثاني رجع الى عادته في الصيام انا على مقدار كم يوم كان يتغدى مع الرهبان. وحقا اقول انهُ كان يتغدى بالاسم. وبعده ابتدا بالصوم وارتدت لهُ عافيته بهذه الطريقة. وبنا ان القس يوسف البتن هو الذي كان يخبرني عن سيرة ابينا المشار اليه فحين وجوده عندنا ابتدا يدلني عن افعاله الروحية السرية وعلى جهاده نفسًا وجسمًا وابتديت ان اشاهد بعيني ما كنت قد أخبرت عنهُ. وبعد نحو ستة اشهر توجه من دير مار اليشع الى دير رشيا. وفي تلك السنة افتتح دير اللويزة. والزمان الذي مكثه في دير مار اليشع كنت اتحايل جهدي لانظر عمله في الكنيسة في الليالي. فمن حيث انتصابه في الصلوة فكان يبان للناظر اليه كأنهُ صنم لا يتحرك وقتًا كان منكبًا على وجهه وحينًا كان يرش التراب والرماد على راسه. فهذه الاشياء وامثالها كان يستعملها بعد صلوة الليل في الكنيسة الى الصبح وما كان مطلع على هذه الافعال الا القس يوسف البتن وانا لله عبد بواسطته لان ابا الدير كان وضعني في وظيفة اكلارجية تحت يد القس يوسف المشار اليه والمذكور من محبته لي كان يطلعني على هذه الامور رغبةً في ان يرشد جهلي. وبعد كمال السنة

من تجربتي قبلت في الرهبنة وندرت الندر الاحتفالي

ورجع ابونا المشار اليه الى دير مار اليشع وقطن فيه نحو سنة ونصف وكان يرشد لي ولغيري وانا لم ازل ارقب سيره من غير ان احد يعرف وعلى ما كنت اراه انهُ كان يزيد عمَّا ذكرت آنفًا. بل ابتدا يصوم يومين يومين وبما ان صيامه لم يمكن ان يخفى عن الناس فتغايرت الرهبان والكهنة على الصيام. فحين رأى غيرتهم امر البعض ان يصوموا الى التاسعة ويستعملوا في التاسعة اكلًا قليلًا بنوع فطور نكسر الصفرة ويتعشوا مع اخوتهم. والبعض كان ينعهم عن الصيام وكل صباح يعطي موضوعًا روحيًا عمليًا لكل من الرهبان حسب مقدرته وموهبته والبعض كان يجمع اثنين اثنين بموضوع واحد ليذكروا بعضهم في نهارهم وعند المساء كانوا يعطون الحساب لهُ حسب الموضوع الذي كانوا اخذوه قبلًا بالتدقيق. وان احدًا منهم ما اظهر كما يجب بسبب سهو ام نسيان كان هو يوضح لهُ الاشياء التي لم يوضحها. وفي ذلك الزمان كان موجودًا جملة مبتدئين والاكثر حلبيون (١ ونوع رشده كان لكل ذي قدر على موجب قدره بنوع يعجز ادراكي عن تفسيره. بل يكفي للقارئ واحدة على موجب فهمي وهي كما ان الرسل القديسين بعد حلول الروح القدس عليهم كانوا يعظون الناس بالعبراني والسامعين كل ذي لغة كان يفهم لغته منهم هكذا عبدالله كان يجلس ويجتمع عليهِ الرهبان في الاوقات المعيَّنة

---

١) امامنا لائحة طويلة تتضمَّن اسماء المبتدئين من الرهبان قبل القسمة وتاريخ قبولهم الاسكيم واعمارهم واصلهم ووطنهم في كثير من الاديرة كدير مار اليشع ودير مار يوحنا رشيا ودير مار بطرس بكفيا (المقب بكريم التين) ودير مار الياس شويا الخ نبدي فيها نظرًا لهُ اهمية تاريخية. وهو ان كثيرًا من السريان والارمن والروم قد لبسوا الاسكيم في الرهبانية اللبنانية المارونية وهاك بعض الاسماء تثبت ما سبق: من الحليين الارمن لبس الاسكيم: بطرس الساعاتي. اسطفان. نتانائيل. فيانوس. براكيم. يوسف دولاب. حنا كرابيد. كيرلس. المقدسي توما. جبرائيل بن اذناور. بولس بن صاهون. قيلبوس كركور. مبارك عجيمي. يوسف الصائغ. فرنسيس. الخ — من السريان الحليين: ميخائيل. عمانوئيل. ارسانيوس. اكليمنضوس. توما العاقل. مبارك اشتا الذي ترأس على دير مار الياس شويا (وهو من العائلات السريانية القديمة ويعرف الحليون حارة اشتا الى ايامنا) وغيرهم وكلهم ذكر اصلهم السرياني اوالارمني بعد اسمهم. ومن دمشق الشام ذكر نقولا الشامي ودانيال الشامي روم الاصل. ومن بيت لحم متى روم الاصل الخ. فتامل

فكانت مخاطبتهُ لهم فيما يختص الطريقة الرهبانية والسير في الطريق الرياضي لبلوغ الكمال عمَّا يخصّ كل واحد. وإذا كان احدهم يسألهُ سؤالًا عن شرح ما ذُكر. فاقول حقًّا من غير ارتياب انهُ من قبل شرحه وجوابه كان كل راهب يفهم من فمه ما يخصه حسب درجته ومعرفته واحتياجه. وسلوكه مع الرهبان كان بكل وداعة مع انهُ من ذات طبعه كان مسودًا شرسًا عنيدًا برايه. لكن متى اكتشف على الحقّ كان يرجع ويقرّ معترفًا بكل تواضع لبّ. فجمع المدبرين امرارًا عديدة حكموا عليه باشياء ضد سلطانه بالذات بزعمهم لخير الرهبنة وتدبيرهم في ذلك الوقت ومن جملة ما ذكر ثلث مرات في مجامع مختلفة كان يحكم المجمع ان الاب العام ولا غيره من الرؤساء يقبل مبتدئًا. وسببه لان الديورة امتلت بل يسمحوا للاب العام ان يقبل مبتدئين حلبيين لم غيرهم الى حد خمسة انفار بشرط ان كل واحد منهم في الروحاني لم الجسداني يكون لهُ تمع بليغ للرهبنة. ومع ذلك كان يطأطئ لقولهم خاضعًا بكل سريرة مع انهم جميعهم تلاميذه وهو الذي نصب مجمع المدبرين فاستدام على هذه الطريقة الى ان خرج من دير مار اليشع الى زيارة الديورة (لها بقيّة)

نقائض جرير والفرزدق (*)

للاب انطون صالحاني اليسوعي

اذا تصفحنا في كتاب الاغاني اخبار الشعراء الثلاثة المتقدمين في صدر الاسلام الاخطل وجرير والفرزدق رأينا في ترجمة كل منهم الحكم لصاحبنا بالسبق على معاصريه. مع انهُ لم يقع إجماع على احدهم انهُ افضل. ولكلّ واحدٍ منهم طبقة تفضّلهُ على الجماعة. قال ابو الفرج الاصبهاني في ترجمة جرير: هو والفرزدق والاخطل

(*) The Nakâ'id of Jarîr and al-Farazdak, edited by Anthony Ashley Bevan M. A. Vol. I Part. 1 et 2, Leiden, Brill 1905.

المقدَّمون على شعراء الاسلام ومختلف في ايهم المتقدّم ولم يبقَ احد من شعراء عصرهم الّا تعرّض لهم فانفضح وسقط وبقوا يتصاولون. على ان الاخطل انما دخل بين جرير والفرزدق في آخر امرهما وقد اسنَّ ونفد اكثر عمره . وهو وإن كان لهُ فضل وتقدّم فليس نجره من نجار هذين في شيء. الّا انَّ صاحب الاغاني اورد في ترجمة الاخطل حكم يونس إذ سئل عن جرير والفرزدق والاخطل ايهم اشعر فاجاب: اجمعت العلماء على الاخطل. وهذا هو ايضاً حكم عمرو بن العلاء وابي عبيدة وسلمة بن عياش وغيرهم ممَّن يفصحون

فان طالعت اخبار جرير وجدتَ الحكم لهُ بانهُ اشعر الثلاثة. ومن يفضّلهُ يحتج بانهُ كان اكثرهم فنون شعر واسهلهم الفاظاً واقلّهم تكلفاً وارقّهم نسيباً وانهُ غلب في الفخر والمديح والهجاء والنسيب

امّا الفرزدق فقد قال عنهُ صاحب الاغاني ما نصُّهُ : هو وجرير والاخطل اشعر طبقات الاسلاميين والمقدَّم في الطبقة الاولى منهم. فترى انهُ فضلهُ على الجميع .

وهذا يذكّرنا بخبرٍ يبيّن ما نجدهُ من الاختلاف وتناقض الاحكام في تفضيل هذا او ذاك من الشعراء. « انشد مروان بن ابي حفصة يوماً شعر زهير ثم قال: زهير والله لشعر الناس. ثم انشد للاعشى فقال: الاعشى اشعر الناس . ثم انشد شعراً لامرئ القيس فقال: امرؤ القيس من اشعر الناس. ثم قال: والناس اشعر الناس. اي ان اشعر الناس من انشدتَ لهُ فوجدته قد اجاد حتى ينتقل الى شعر غيره » (الاغاني)

وعندي ان الذي حدا بالبعض الى تفضيل وتقديم جرير والفرزدق هو ان الاخطل كان نصرانيًّا. ولاختلاف الاديان تأثير حقيقي في الاحكام . لكن لو طالعت قصائد الاخطل لتحققت ان لهُ نفساً عالياً وشرف منطق مع فخامة في المديح وجزالة وعظمة ترفع من يمدح بل تسكر كالخمر المعتقة التي يجيد نعتها. ولهُ نظر في الوصف مع قوة في التعبير تجعلهُ يصوّر بوجيز الكلام المناظر الطبيعية كما هي فيتخيَّل لك انك تشاهدها كما في البيت الذي يرينا فيهِ الأتن الوحشية تشرب من مجرى المياه العذبة والحاظها الى الغيضة حيث تخشى الصياد متواريًا يترصدها:

يشربنَ من باردٍ عذبٍ وأعينُها من حيث تخشى روارّى الراميَ الغيلُ

وللاخطل تفنّن في الهجاء مع سطوة وإقدام وطعن مؤلم خالٍ من الفحش الدني الذي اعتاده جرير والفرزدق. فيسقي عدوّه سمًا زعافًا مدوفًا بماء الذهب. وناهيك عن رقة نسيبه الفتان فان مصدره القلب لا كنسيب جرير الصادر عن اللسان

ومهما كان الامر فلا خلاف في ان الثلاثة لهم الفضل على سائر الشعراء الذين نبغوا بعد الجاهليّة. فمطالعة قصائدهم تفيد جدًّا لمعرفة الشعر القديم وللتبحر في العربيّة

هذا وانّ آمن واحسن طريقة لتعلم ايهم فاز بقصب السبق هي مطالعة ومعارضة اشعارهم فان القدماء ممن حكموا بالفضل لهذا او لذاك لم تكن لديهم مجموعة دواوينهم لان مثل هذه النسخ كانت نادرة الوجود. فكانوا يحفظون قصائدهم وينشدونها وكانوا عند سماعهم بعض ابيات مستجادة يحكمون لصاحبها بالسبق. فاذا سمعوا ابياتًا حسنة لشاعر آخر حكموا له بالفضل

امّا الآن وقد اصبحت اشعارهم مطبوعة تتداولها ايدي الجميع فاضحى الانصاف في الحكم اسهل لانهُ يمكننا ان ندعمه بالبينات و شواهد من مجموع القصائد لا من بيت او بيتين

فهذا ديوان الاخطل طُبع منذ ١٦ سنة بمطبعتنا الكاثوليكيّة بحرف جميل نظيف مضبوطًا بالشكل الكامل مع شرح وافٍ. وقد طُبع ايضًا ديوان جرير منذ ١٢ سنة بمصر لكن طبعًا سقيمًا بأحرف غير جلية وبدون شرح ولا شكل. مع انهُ يوجد في المكتبة الخديويّة نسخة خطية من ديوان جرير ونسخة خطية حديثة من نقائض جرير والفرزدق ضافيتا الشروح. فما كان اسهل على طابع اشعار جرير ان يعتمد على هاتين النسختين في تعليق الحواشي وضبط الابيات بالشكل. وطُبع ايضًا ديوان الفرزدق في اوربّة لكن معظمه طُبع بتصوير النور على طريقة تتعب نواظر القرّاء فتحار العيون بين هذه الاسطر الدقيقة المتقاربة والحركات المشتبكة فلا يلبث القارئ ان يطرح الكتاب جانبًا لما يلاقي من التعب في مطالعته

وعليهِ فقد تلقينا بالبهجة والثناء الهدية التي اتحفنا بها المسيو بريل الطبّاع الشهير الذي نشر بالطبع كتبًا عربيّة اكثر ممّا نشرت كلّ مطابع اوربّة. وقد طبع مؤخرًا نقائض جرير والفرزدق بقطع كبير (٣١ س × ٢٤ س) وهامش عريض مع سعة بين

السطر والسطر وبين الكلمة والكلمة فيرتاح القارئ في المطالعة وتنصرف عنايته الى درس وتفهم المعاني. وقد تولّى نشر هذا الاثر الجليل العلّامة بيڤن من اساتذة كلية كمبريدج في انكلترة فضبط بالشكل الكامل الابيات واختار لها حرفًا كبيرًا ممتازًا. واتبع كل بيت بالشروح وانتقى لها حرفًا اصغر. واثبت في آخر كل وجه الروايات المختلفة مع تعيين مصادرها. وقد نجز الى الآن جزءان من النقائض يحتويان معًا ٣٤٢ صفحة ما عدا مقدمة ذات ٢١ صفحة كُتبت بالانكليزيّة. فننتظر بفروغ صبر تكملة الكتاب

لا احد يجهل ان النقائض تحتوي اشهر بل عيون قصائد جرير والفرزدق لان حياتهما انما فنيت في المنافسة والمعاداة والمناقضة. فالنقائض تمثل لنا قسمًا كبيرًا من ديواني هذين الشاعرين. وهكذا استغنينا عن طبعة ديوان جرير السقيمة وعن طبعة ديوان الفرزدق العقيمة

اعتمد العلامة بيڤن المدقق على ثلاث نسخ من النقائض محفوظة الاولى منها في مكتبة البودلية بكلية اكسفورد. والثانية في خزانة كتب المتحف البريطاني. والثالثة في كتبخانة كلية استراسبورغ. والحق يقال اننا قلّما رأينا ديوان شعر محلّى بشروح وافية كشرح نقائض جرير والفرزدق. فان الشارح لا يقتصر على تفسير المفردات بل كثيرًا ما يؤدي مجمل معنى البيت. وهذا امر لا يقدم عليه الّا الشارح المتضلع. ومما يجدر ذكره هو ان الشارح اتى بقصص بعض الحوادث وايام العرب التي ورد ذكرها في النقائض فوجدناها وافرة وافية

والنقائض هي رواية ابي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة عن الحسن بن الحسين السكري المتوفى سنة ٢٧٥ هـ عن ابي جعفر محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ عن ابي عبيدة مَعْمَر بن المُثنّى التيمي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ (راجع اللسان ١٧ : ٢١٥)

وقد استعان ايضًا العلامة بيڤن بكتب عديدة ذكر اسماءها في المقدمة واقتبس منها افادات وروايات مختلفة. وكنّا نودّ لو اثبت بتصوير النور وجهًا من كل من النسخ الثلاث التي اعتمد عليها لنعلم حالتها من حيث الخط والحركات والقدم لان في مثل

هذه الامور لمحة بسيرة الى النسخة الادبية التي أكثر بالرغوب وتغني عن تفاصيل طويلة

هـذا وان النقائض تساعد على ايضاح بعض المشاكل التي تعترض في دواوين الاخطل وجرير والفرزدق. نبيّن ذلك ببعض الامثلة:

قال الاخطل في السطر ٨ من الصفحة ٢٢٤ من ديوانه:

بمعرضٍ او مُعيدٍ او بني المُطَنَّى ترجو جريرٌ مساماتي واخطاري

فمن هذا البيت لا يعرف اذا كان المعرض والمعيد اسمي علم. وفي نسخة بغداد للاخطل (السطر ١٢ من الصفحة ١٣٧) ما يشير الى ان هذين الاسمين هما اسما علم. قال الشارح: «هؤلاء بنو كليب وأحدهم كان ضعيف العقل». وفي النسخة اليسنية (٢٩ السطر ٣) يروى: «بمعرضٍ او عُبَيْدٍ او بني المُطَنَّى». اما نسخة النقائض فانها توضح وتحقق ان المعرض والمعيد هما شخصان بعينهما من بني المطنى. قال غسّان ابن ذُهيل السَّليطي (الصفحة ٧ السطر ٣) يعيّر جريرًا بضعف قومه في الحرب:

سَتَعْلَمُ ما بنو مُعَيْدٍ ومُعرِضٌ اذا ما سَليطٌ غرَّتك بُجورُها

وفي الشرح: «مُعَيْد جدّ جرير ابو أمه وأمّهُ ام قيس بنت معيد بن عُتيم بن حارثة ابن عوف بن كليب ومعرض من اخواله وكان يُحمَق»

المثل الثاني: قال الاخطل (١٩٣ السطر ٦):

ازبّ الحاجبين بعَوْفِ سَوْءٍ من الحيّ الذين على قَنانِ

فنسخة بطرسبرج لم تفسّر ما هو قنان. وفي النسخة البغداديّة (ص ١٥٠ س ١٣) انهُ «جبل معروف». اما نسخة النقائض فتصرّح (ص ٣٩ س ١١) بان «القنان جبل لبني قُشَير من بني اسد». وروت الساعدين عرض الحاجبين

وتفيدنا النقائض اصلاح بعض اغلاط في دواوين الاخطل وجرير والفرزدق كما ان دواوينهم تعين على اصلاح بعض اغلاط في النقائض. مثلًا في هذا البيت (النسخة البغدادية ص ١٧٠ س ١٣ والنقائض ١٤٢ س ١١)

يومٌ قَناعةَ مجدومٌ مناطِسُها وهو اشمّ ترى في راسهِ صيَدا

روت النقائض «يرمي» عوض «يوم» وهـذه الرواية هي الصحيحة. واكتفت

النسخة البغدادية بان قالت ان « هذا يوم المنافرة » . امّا نسخة النقائض فانها اتت بقصّة هذا اليوم في اربع صفحات . وهو يوم المنافرة بين جرير بن عبد الله البجليّ وخالد ابن ارطاة

وقد افادتنا ايضاً النقائض تحقيق واثبات مسألة حررناها في القسم الخامس من ديوان الاخطل المهيأ للطبع . وهي ان القطعتين المثبتين في الصفحة ٢٧٥ و ٢٨٤ من ديوان الاخطل كانتا في الاصل قصيدة واحدة فتدت نسيها ثم انشطرت قسمين بخطأ او جهل الناسخ كما هي الآن . اراد الاخطل في هذه القصيدة هجاء جرير وتفضيل الفرزدق وقومه بني دارم على بني يربوع قوم جرير ولذلك رفع اولاً شأن الثعلبيين الذين كانوا اغاروا على بني يربوع يوم ذي بَيض او يوم الحضيات (او الصهيبات كما في نسخة بغداد ص ٨١ س ٣) ثم مدح الدارميين لانهم انقذوا بني يربوع . وعليه يلزم تصحيح كلمتي التغلبيين والتغلبي (ص ٢٧٦ س ٢ و ٢٨٤ س ٦ و ٢٨٥ س ١) بكلمتي « الثعلبيين والثعلبي » لان الذين اغاروا على بني يربوع هم من بني شيبان بن ثعلبة . ولا يبعد ان يكون الاخطل عنى بالحية (ص ٢٨٥ س ٢) الحوفزانَ الحرث بن شريك رئيس القوم الذين كانوا اغاروا على بني يربوع واسره حنظلة بن بشر احد الدارميين .

وكانت النسخة البغدادية أيدت هذا التفسير اذ قالت (ص ٨١ س ٣) : « هذا يوم ذي بيض واغار الحوفزان الشيباني على بني يربوع فقطع منهم طرفاً فاتى الصريخ بني دارم فلحقوا الحوفزان واستنقذوا ما في يديه »

وقد حقّقت النقائض (ص ٢٨٥ س ٧ و ص ٢٨٦ س ١٠ و ١٥) هذا الشرح بابيات قالها الفرزدق في نقيضة يهجو بها جريراً :

لو تعلمونَ غداةَ يُطرد سِبْكُمُ بالسفح بين مُلَيحة وطِحالِ
والحوفزانُ سَوَوْمُ افراسُهُ والمُحصَنات يبُلنَ كلَّ مجالِ
حتى تداركها فوارسُ مالكٍ ركضاً بكلّ طُوالةٍ وطُوالِ

وقال ابو عبيدة شارح النقائض « اغار الحوفزان بن شريك على بني يربوع بذي بَيض فسبى واخذ الاموال . . . قال واسر حنظلةُ بن بشر . . . بن دارم الحوفزانَ بن شريك ثم منّ عليه بلا فداء وردّ ما كان في يديه من المال على بني يربوع » . فهذا قول الاخطل :

هم انقذوا يوم المُغيبات سيكم وابناء رهط اكلب قُرعُ المبارك
فردتم حذارَ الشليين اذ سروا بأرعنَ طودٍ مشمخرِّ الحوارك

وهذا القدر يكفي

وقبل ان ننهي الكلام نرغب الى المسيو بريل ان يصلح او يبدل بعض الحروف التي يستعملها للطبع فان نقطها لا تكاد تظهر ولو استعنّا بالمجهر وذلك لدقتها. ولصوقها بالحرف مثل نقطة الباء والجيم والضاد والغين. وهذا في كل صفحات الكتاب ولذلك تصعب القراءة وتفقد لذة المطالعة. ولنا الامل ان المسيو بريل يعير ملاحظتنا هذه اذناً صاغية

فنمحض العلامة بيڤن والمسيو بريل خالص شكرنا ونتمنّى لهما اتمام العمل في الاجل القريب خدمة للعلماء والعلم

الاعتراف في اوائل النصرانيّة

للاب يوسف خليل اليسوعي

اجتمعنا يوماً برهطٍ من الفضلاء فتجاذبنا اطراف الحديث في امور شتّى حتى افضى بنا الكلام الى بعض عقائد الدين المسيحي فابدى لنا احد الحاضرين ما يخالجهُ من الشكّ ويعترضهُ من المرية في امر الاعتراف فقال: بلغني عمّن يُوثق برأيهم ويُسكن الى علمهم انَّ لا أثر لهذا السرّ في اوائل النصرانيّة وان الكنيسة لم تعلمهُ ولم تعرفهُ في خلال القرون الاولى. انّما اختلقهُ في الجيل الخامس او السادس اهل المآرب والغايات وتضافروا على نشرهِ بين السذّج. وبعبارة اخرى: كل من حاول إثبات وجود هذا السرّ عند النصارى الاقدمين ورام الاستناد بذلك على تصرّف آباء الكنيسة ومعلميها واترابهم في العصور الاولى يتحرّى الحال فيُردُّ بالخيبة. فني بادئ بدء لم نعجب من هذه المزاعم ولم نحفل بها لانها محض اكاذيب وترّهات وقفنا عليها مراراً في كتب الملحدين ودحضها عدد عديد من العلماء الاثبات انّما:

لقد اسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

فاجبنا في الحال بما رأيناهُ صواباً وما انفرط عقد المجلس حتى لبّينا اقتراح لفيف

المتحادثين بوضع مقالة نضمّنها شهادات راهنة تؤيّد معتقدنا وتردّ بكيد كل مناقض مكابر . فتصفحنا التآليف العريقة بالقدم وكان اعتمادنا على اعمال الآباء القديسين تلك التي اجمع العلماء على ضدقها وزلال موردها فتتبعناها في الستة الاجيال الاولى للنصرانيّة واقتطفنا منها ما وجدناهُ وافياً بالمرام وقد اثبتناهُ بحرفهِ واشرنا الى صفحتهِ في المجلّدات ليرجع اليهِ القارئ وطالعهُ اذا رغب في مظنّتهِ . ويجدر بنا قبل المباشرة بايراد هذه الشهادات ان نبيّن باختصار حقيقة رسم سرّ التوبة من لدنه تعالى فعليهِ بنى الآباء حججهم ولولاها لأضربوا عن هذا الموضوع

طالما جادت رحمة السيّد المسيح مدة حياتهِ على الارض بمغفرة الخطايا لمن تاب اليهِ فيها وكفّر عنها ولكنهُ لم يرتض بذلك بل انهُ وعد بطرس (متى ١٦ : ١٩) وجميع الرسل (متى ١٨ : ١٨) بسلطة الحلّ والربط ثم بعد انتصارهِ على الموت وخروجهِ من ظلام القبر تراءى لتلامذتهِ وقال : « السلام لكم . كما ارساني الآب كذلك انا ارسلكم . . . خذوا الروح القدس . من غفرتم خطاياهم تُغفر لهم ومن امسكتم خطاياهم تُمسك لهم » . (يو ٢٠ : ٢١ — ٢٣) فخوّلهم بهذه الكلمات قدرةً ليكسروا نير الخطيئة ويردّوا الخراف الضالّة الى حظيرة الربّ ويستمطروا نِعَم الله على ابنائه عقّوا اباهم ثم ندموا على ما اقترفوه من الذنوب . ولم يستثنِ الخاصّ الالهي خاطئاً او خطيئةً لان هذه العبارة : « من غفرتم خطاياهم تُغفر لهم » وفي اصلها اليوناني « ἀφέωνται τὰς ἁμαρτίας » تدفع كل حصر وتقييد فهي عامّة ومطلقة . فيتحتم القول اذاً بموجب معناها البديهي واصطلاح الكتاب المقدس بان الخاطئ اذا ما تأهّب لهذا السرّ وقبلهُ على شروطهِ حُلّ من وثاقهِ ونال عفواً من الله ابيه . أجل ان طبيعتنا لا تسمو الى هذه السلطة ولهذا اذ لم يؤمن الفريسيون بالوهيّة السيد المسيح انكروا عليهِ كلامهُ للمخلّع : « يا رجل مغفورة لك خطاياك » قائلين : « من هذا الذي يتكلّم بالتجديف . من يقدر ان يغفر الخطايا الّا الله وحدهُ » (لوقا ٥ : ٢٠ — ٢١) . ولكن من لهُ ان يضع حدّاً لمواهب الرب وعطاياه . فانهُ يمنح ما يشاء لمن يشاء . وما لجبلتهِ الحقيرة الّا الاقرار بحكمتهِ وعدلهِ

واعلم ان سلطة الحلّ والربط دامت وستدوم في الكنيسة الى منتهى الاجيال لانّ الله لم يعطها فقط للرسل بل لخلفائهم الشرعيّين في اي زمان ومكان وُجدوا وإن

لم يصرّح الانجيل بذلك. نال الحواريون من سيّدهم هـذه السلطة كما نالوا سلطة تعليم البشر وغسلهم بمياه المعمودية واقامة سرّ الافخارستية وهذا كلهُ بقي وسيبقى في الكنيسة مع ان الكتاب المقدس لم ينبئنا شيئاً عن دوامهِ وانتقالهِ من الرسل الى من قام مقامهم. فيجوز لنا والحالة هذه لا بل يجب علينا القول بأنهُ لم يُحرّم اخلاف تلامذة ابن الله من هذه السلطة لاسيما وان الداعي الى وجودهـا ما زال ولن يزال منبثًّا على الارض تتقاذفهُ القلوب والعقول والالسنة. فكم من الآثام والذنوب يرتكبها البشر كلَّ يوم فكرًا وقولًا وفعلًا. فلكل داء اذًا دواء ودواء الخطيئة سرّ التوبة

حسبنا الآن ما اشرنا اليهِ من رسم سرّ الاعتراف واعطاء سلطة الحلّ والربط الى الرسل وخلفائهم فبقي علينا ان نقوم بعبء ما تحرّينا ايضاحهُ ونُثبت استعمال التوبة في الاجيال الاولى من النصرانية ولذلك عُنينا بإيراد بعض شهادات الآباء والمؤرخين وبذكرها تتابعاً ليكون القارئ على بيّنةٍ بان هذا السرّ كان اوانئذٍ منتشرًا في العالم المسيحي لكنّنا نستلفت نظهُ الى امرٍ وهو انَّهُ ندرت التآليف التي اتّصلت الينا من الجيل الاول بعد السيد المسيح فاذا ما استثنيتَ العهد الجديد فتكاد لا تجد كتاباً وُضع في الجيل الاول تفسيرًا للدين المسيحي واثباتًا لعقائدهِ لكنا على توالي العصور توالت المصنَّفات وكثرت الشهادات المؤيدة لما نحن في صددهِ. فكفى بذلك تنبيهاً لكل مطالع لبيب

١ (الكنيسة السوريَّة): نستهلّ كلامنا عن هذه الكنيسة الاثيلة والعريقة في القِدَم بذكر القديس العظيم اغناطيوس الانطاكي ذاك الذي هرق دمهُ شهادةً للحقّ وبرهانًا للدين في غرة القرن الثاني (١٠٧م) واليك ما كتبهُ في رسالتهِ الى اهل فيلادلفية: «يغفر الله للتائبين اذا ما لجأوا اليهِ وتابوا رضى الاسقف». فبرضى الاسقف او بمشورته كما قرأناهُ في نسخة ثنية اشارة واضحة لاسيما في ايام الاضطهاد الى حكم الاسقف وفتواه في الخطيئة ومن اقترفها (١ — وقد اشتهر امر رسالة بُعثت الى يعقوب الاورشليمي وعُزيت الى اكليمنضوس الروماني لكنهُ ثبت الآن عند العلماء ان واضعها كان سوري الاصل والمنشإ وعاش في الجيل الثاني. فوجدنا فيها ما يلي: «قال القديس بطرس: اني اعطي اكليمنضوس سلطة الحلّ والربط التي خوّلنيها السيد المسيح. فما

١) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٥ ص٨٢٢)

يحكم به على الارض يُحكم به في السماء لانهُ يربط ما يجب ربطهُ ويحلّ ما يجب حلّهُ». ثم يعتم الكلام عن الاساقفة بقولهِ: «لهم السلطة بغلق ابواب السماء وبفتحها لانهم اصبحوا مفاتيح السماء» (١. وهوذا شهادة باهرة وبيّنة ساطعة نقتطفها من كتاب للقديس يوحنا فم الذهب في الكهنوت وشرفهِ. قال: «الكهنة هم أناس يعيشون على وجه البسيطة... لكنّهم كُلّفوا بتدبير الامور السماويّة وقد قلّدهم الله سلطةً لم يعطها الى الملائكة ورؤساء الملائكة لانهُ لم يقل لهم مثلما قال للكهنة: من غفرتم خطاياهم تُغفر لهم ومن امسكتم خطاياهم تُمسك لهم. اجل لانَّ لحكام الدنيا سلطةً ليقيّدوا الاجساد ويكبّلوها بالحديد انّما تلك السلطة التي يتكأّم عنها الانجيل تقع على النفس فتربطها. فصدرها السماء وعلاقتها مع السماء ولهذا كل ما يحكم به الكهنة يصادق عليهِ الله في السماء لان السيد يؤيّد حكم عبدهِ فلا حدَّ اذًا لسلطة الكهنة حتى في السماء بما ان الله قد قال: من غفرتم خطاياهم تُغفر لهم... اعطى الآب الازلي ابنهُ الحبيب كلَّ حكم وها اني ارى الابن يعطي الكهنة ما نالهُ من ابيهِ» (٢. ولم تخنّ علينا اعمال الآباء السوريين الموضوعة في اللغة السريانية بشهادات تُشير الى المعتقد الذي نبحث فيهِ. فقد اكتُشفت حديثًا تآليف القديس افراهاط الملقّب بالحكيم الفارسي واليك ما وجدناهُ في عظة لهُ القاها سنة ٣٣٧ م في التوبة وقد عبّر عمّا يقصدهُ بتشبيهٍ لطيف. قال: «لكلّ ألم دواء اذا اطّلع الطبيب النطاسي على حالة الداء. فلا يخجل اذًا من صرعهُ الشيطان من الاقرار بذنبهِ ومن العدول عنهُ واتخاذ الاعتراف دواء لهُ». وقال ايضاً: «الخاطئ هو من ضرّجهُ جراحًا الضعفُ والتغافلُ في حربٍ قامت بها الاهواء عليهِ. فاذا رغب بالشفاء وباندمال جراحهِ فليعرضها على الطبيب الروحي وليتخذ ما يصفهُ لهُ من الادوية» (٣. وهذا ايضاً ما ذهب اليهِ القديس افرام العظيم في كتابهِ ضد الهراطقة وآرائهم الفاسدة (٤

---

١) اعمال الاباء اليونانيين (ج ١ ص ٤٦٤ و ٤٧٨)

٢) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٥٧ ص ٦٤٣)

٣) اطلب اعمال القديس افراهاط طبعة غرافين في باريس سنة ١٨٩٤ (المجلد الاول صفحة ٢١٢ و ٢١٥ و ٢١٨ و ٢٦٠)

٤) اطلب اعمالهُ المطبوعة في رومة سنة ١٧٤٠ (ج ٢ ص ٤٤٠)

وكان بودّنا ان نذكر شيئاً من كتب العلماء المنفصلين عن الكنيسة الكاثوليكيّة كمبد يشوع والبطريرك ميخائيل الكبير وغيرهما فانها تؤيّد ما نحن في صدده لكنّنا آلينا ألّا نتجاوز الجيل السادس منذ ابتداء النصرانيّة

٢ (كنيسة الاسكندريّة): توفي اكليمنضوس الاسكندري سنة ٢١٧ بعد ما قام بمهامّ كثيرة عُهدت اليه لانهُ كان ذا علم واسع وشهرة طائرة ورأي سديد. قال في بعض مؤلفاتهِ: «من يقبل ملاك التوبة لا يأسف ابدًا من عملهِ لاسيما عند ساعة الرحيل من هذه الدنيا ولا يخجل حينما يرى المخلص آتياً بجلالهِ وعظمتهِ» (١. اراد بملاك التوبة الاسقف او الكاهن المقام للنظر في امر الخطأة كما يظهر من قرينة كلامهِ. وكثيرًا ما يدعو اكليمنضوس هذا السرّ «بالتوبة الثانية» (٢

وفي نحو سنة ٢٣٠ صنّف أوريجانوس الشهير كتاباً شرح فيهِ الصلاة الربيّة ولمّا وصل منها الى هذه الكلمات: «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر لمن اساء الينا» ذكر نصّ الكتاب المقدس في شأن الاعتراف ثم قال «ان الجحود بالدين وعبادة الاصنام والزنا خطايا جسيمة». وابتدأ يقبّح عمل: «الكهنة الذين» على زعمهِ «يتخذون سلطةً تعلو مقامهم ويمنحون المغفرة لمن اقترف هذه الذنوب الثلاثة» (٣. فيتّضح من هذا القول ان الكهنة كانوا يقومون في ايّامهِ بوظيفة الاعتراف ويحلّون من جميع الآثام حتى من الخطايا التي يرغب باستثنائها تبعاً لرأي المبتدعين. وقال ايضاً في عظتهِ ١٧: «اذا اقررنا بخطايانا ليس فقط لله تعالى لكن للذين لهم ان يداووا جراحنا وذنوبنا فان هذه الخطايا ستُغفر عند من قال: «سأُزيل الخطايا كالنهار» (٤—. وقد اخنى الزمان على كتب تفيسة فلم يبقِ من بعضها الّا اسماً ومن بعضها قسماً وبين هذه كتاب للقديس اثناسيوس (٣٧٥) دحض فيهِ هرطقة نوفاسيان نثبت منهُ فقرةً: «من يعترف بذنبهِ في التوبة ينل المغفرة من لدن الكاهن بقوة نعمة المسيح» (٥. وكتب القديس كيرلّوس

١) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٩ ص ٦٤٦ و ٦٥٣)
٢) اطلب ايضاً (ج ٨ ص ٩٩٦)
٣) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ١١ ص ٥٣٨ و ٥٣٩)
٤) اطلب (ج ١٣ ص ١٨٤٦)
٥) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٣٦: ص ١٢١٦)

في اوائل الجيل الرابع: « لاي سبب اعطى المخلّص تلامذتهُ سلطةً يخال انها حُفظت لهُ دون غيره ؟ لانهُ اراد ان يحلّوا ويربطوا الخطايا بعد قبولهم الروح القدس... واما حلّهم للخطايا فانهُ يكون على طريقتين العماد والتوبة » (١

٣ (كنيسة القسطنطينيّة) : اطلعنا المؤرخان سقراط وسوزومين عمّا كانت تجريهِ هذه الكنيسة في شأن سرّ التوبة . قال سقراط : « أُنيطت مهمّة الاعتراف بكاهن عُرف بالتُقى والعلم واصابة الرأي وذلك على اثر بدعة نوفاسيان » اما سوزومين فانهُ يؤكّد إقامة الكهنة لمنح سرّ التوبة قبل ذلك العهد وارتقاءها الى الاجيال الاولى للنصرانيّة . قال : « وبما ان الاقرار بالخطايا جهارًا اضحى وقرًا ثقيلًا على عاتق المسيحيين عيّن الاسقف كهنة فضلاء لاستماع الخطايا ولارشاد المذنبين والحكم عليهم وحلّهم من قيود الاثام بعد الحتم عليهم بأداء فرض التوبة ومزاولة الاعمال التكفيريّة (٢

ولقد نهض عداة القديس يوحنا فم الذهب (٤٠٣) وزمّوهُ لانهُ قال في عظة : « اذا ارتكبتم الخطيئة فاندموا عليها وارجعوا اليَّ وانا اشفيكم ». (٣ وبذلك بيّنة لما الفهُ لفيف المؤمنين في تلك العصور

٤ (كنائس اسية الصغرى) : ليست شهادات معلمي هذه الكنائس باقلّ وضوحًا ممّا تقدّم لنا ايرادهُ . فلنثبت بعضها ليظهر جليًّا اتّحاد آباء الكنيسة في تعاليمهم في ايّ مكان وزمان وُجدوا . كتب فيرميليان اسقف قيصريّة قبّادوقية المتوفّى سنة ٢٥٢ رسالة الى القديس قبريانوس جاء فيها : « أعطيت سلطة حلّ الخطايا الى الرسل والى الكنائس التي أسسها الرسل ثم الى الذين خلفوا الرسل ». (٤ وعُرف القديس باسيليوس بهمّتهِ القعساء فيما يختص باسرار الكنيسة واقتبالها وحفظهِ على الدين بدون شائبة . وممّا قال في سر الاعتراف : « على الخاطئ ان يقرّ بذنوبهِ لمن كُلّف بتوزيع الاسرار ». (٥ وللقديس غريغوريوس النزينزي عظة بليغة دحض فيها مزاعم الذين ينكرون على

١) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٧٤ ص ٧٢١)
٢) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٦٧ ص ٦١٢ – ٦١٧ و ١٤٥٧ – ١٤٦٠)
٣) اطلب الجامع طبعة هردوين (ج ١ ص ١٠٤٣)
٤) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٣ ص ١١٦٨)
٥) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٣١ ص ١٢٨٤)

الكنيسة سلطة غفران الخطايا . (١ وذكر القديس غريغوريوس النصيصي في رسالة له انهُ أقيم في كل كنيسة كاهن لاستماع الاعتراف وللاقتصاص من الخطأة بمقتضى آثامهم » (٢ وعاش هؤلاء الآباء في الجيل الرابع للمسيح

٥ (الكنيسة الايطالية) : تلقينا بينة قديمة في سر التوبة من كتاب دُعي : « بالراعي هرماس » ووُضع في منتصف الجيل الثاني فهاكها : « قال لي الموكل على سر التوبة ان الرب الرحيم تحنن على خليقته فرسم سر التوبة واقامني على توزيعه ولهذا . . اذا اقاد احد الى هواجس الشيطان وسقط في الخطيئة فليقبل التوبة »(٣ . لكن مؤلف الكتاب المذكور اخطأ في ما زعمهُ بعد هذا ان من اقترف ذنباً وتاب عنهُ ونال المغفرة في الاعتراف ثم تورَّط ثانيةً في وهدة العاصي فلا تُغفر خطاياهُ ولا تُقبَل ندامتهُ . واننا نقرأ في قوانين هيبوليطوس وهي ترتقي الى اواخر الجيل الثاني او الى اوائل الجيل الثالث صلاةً تُتلى يوم سيامة الاسقف واليك بعضها : « امنحهُ يا رب درجة الاسقفية واعطهِ روح الرحمة والسلطة لحلّ الخطايا » (٤ . وورد في كتاب « رسوم الرسل » ما نصُّهُ : « امنحهُ ايها الرب القدير روحك القدوس لكي ينال سلطة حلّ الخطايا حسبما رسمت وامرت . خوَّلهُ القدرة ليفكّ اي رباط كان كما اعطيت الرسل » . (٥ وقد نهض البابا كاليست في ابتداء الجيل الثالث وقاوم بدعة مافي وصرَّح بان كل الخطايا تُحلّ وتُغفر اللهمَّ اذا كان المذنب يندم عليها ويكفّر عنها (٦ وفي خلال سنة ٤٥٢ كتب البابا لاون الى تيودوروس اسقف فريجوس الاسطر التالية : « ان الرحمة الالهية تأتي بنا وتساعدنا في التكفير عن الذنوب حتى لا نيأس من الحياة الدائمة وذلك ليس فقط بواسطة العماد لكن ايضاً بقوة دواء التوبة . فإنَّ دنَس احدٌ بقباء عماده فيمكنهُ ان ينال مغفرة خطاياه على شرط ان يحكم على نفسهِ ويقرّ بما فعل لانَّ الرب يعين البشر بواسطة تضرعات الكهنة لا غير . ان المسيح الوسيط بين الله والبشر اعطى رؤساء الكنيسة سلطة لمعاقبة الذنوب

١) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٣٦ ص ٢٥٦ وما يتبعها)
٢) اطلب (ج ٤٥ ص ٢٢١ — ٢٢٢)
٣) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ٢ ص ٦١٤ — ٦١٩)
٤) اطلب كتاب الكاهن دوشان في بادئ الرُتب (الطبعة ٢ ص ٥٠٦)
٥) اطلب اعمال الاباء اليونانيين (ج ١ ص ١٠٧٣)
٦) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٢ ص ١٧٩)

ولادخال من يعترف بباب السلام وللاشتراك معهُ بالاسرار بعد ما يطهّر نفسهُ باعمال التكفير .... ويجب على الكاهن ان يضع وقر الخطايا عن منكبي الخاطئ ويردّ الابن الى ابيه قبل ان يداهمهُ الحمام.» (١ وقال القديس هيرونيموس في رسالتهِ الشهيرة الى هليُودوروس: «بكلمة الاساقفة خلفاء الرسل يتكوّن جسد المسيح . فهم الذين صبغونا بماء العماد وجعلونا مسيحيين وبايديهم مفاتيح ملكوت السماوات فلهم ان يدينونا قبل يوم الدينونة العظيم.» (٢ واثبت القديس امبروسيوس: «ان الله وحدهُ يغفر الخطايا لكنهُ يغفرها بواسطة الذين اعطاهم القدرة لحلّها وغفرانها ... ان الله اعطى الرسل سلطة مغفرة الذنوب ومن الرسل انتقلت هذه السلطة الى الكهنة دون سواهم. فبحقّ اذًا يطلبون الاستقلال بها وهي خاصتهم ليحلّوا الخطايا» (٣

٦ (الكنيسة الافريقيّة) : يعلم كل مُطّلع على تاريخ الكنيسة وكل خبير بالحوادث الغابرة ضلال ترتليانوس في بعض عقائد الايمان منها انهُ لم يسلّم بمغفرة الخطايا الجسيمة فمن اقترفها كان لا محالة على زعمهِ من الهالكين ندم او اصرّ على ذنبهِ اعترف او لم يعترف. ولهذا قسّم الخطايا الى ثلاثة اقسام خفيفة ومتوسطة وجسيمة فزعم انّ لا سلطة للكنيسة لتحلّ من جحد الايمان وارتكب ذنب الدعارة وهرق دمًا زكيًا لكنّها تستطيع ان تغفر باقي الخطايا» (٤ . فممّا تقدّم يظهر ان ترتليانوس يقرّ بوجود سرّ التوبة ومغفرة الخطايا لكنّهُ يستثني بعض آثام فظيعة لا تشملها على رأيهِ تلك السلطة التي اعطاها السيد المسيح للرسل ولخلفائهم . فناهضهُ لفيف الاباء ودحضوا مزاعمهُ . وفي اثناء سنة ٢٥٨ استشهد القديس قبريانوس وكان نور عصرهِ قداسةً وعلمًا وقد عُرف بحزمهِ وعلوّ كلمتهِ فكثر عدد المؤمنين في زمانهِ في البلاد الافريقيّة . واليك بعض اقوالهِ في موضوعنا: «على كلّ ان يعترف بخطيئتهِ ما دام في قيد الحياة حيث تُقبَل توبتهُ واعمالهُ التكفيرية وتُمنح لهُ المغفرة بواسطة الكنيسة ...» (٥ واماّ القديس اغوسطينوس

---

١) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٥٤ ص ١٠١١ — ١٠١٢)
٢) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٢٢ ص ٢٥٣-٢٥٣)
٣) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ١٥ ص ١٦٢٩ ج ١٦ . ص ٤٦٨ و٤٧٧ و٤٩٦)
٤) اطلب الاباء اللاتينيين (ج ٢ ص ٩٧٩ و١٠١٧ و١٠٢٤)
٥) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٤ ص ٤٨٦)

فانهُ اثبت سرّ الاعتراف في مواضع شتّى من تاليفهِ النفيسة تقتصر على ايراد النزر اليسير منها دفعًا للملل. قال في عظتهِ ٣٥١: « فليذهب الى الاساقفة كل من اخطأ فانهم استلموا في الكنيسة سلطة المفاتيح » (١. فعبّر بسلطة المفاتيح عن سلطة الحلّ والربط وقبول الخاطئ او ابعادهِ من الكنيسة . ولمّا زحف جيش القندال قصدَ الاستيلاء على اقاليم افريقية الشمالية وكان شعب القندال معروفًا اوائذٍ بشدة وطأتهِ فيسلب وينهب ولا يصون عرضًا. فهال الامر اهل البلاد ولاذوا بالفرار وكان بين من خاف فهرب بعض الكهنة فوبّخهم القديس اغوسطينوس على جبنهم وكتب بذلك رسالة بيّن فيها الخطر الذي يقع فيهِ اولئك « الذين يطلبون العماد او يتوبون الى الله ويرغبون بالتكفير عن خطاياهم ويسألون ان توزّع عليهم الاسرار . فاذا كان الكهنة لا يهبّون الى تحقيق امنيّة هؤلاء الخطأة فيغرّون هاربين فما اعظم شقاء الذين يخرجون من هذه الحياة بدون عماد وحلّ » (٢ وهو كلام صريح في سلطة الكهنة بمغفرة الخطايا

٧ (الكنيسة الاسبانيّة): منذ عُقد مجمع « البيرة » سنة ٣٠٠ للمسيح وقرّر امورًا شتّى تتعلّق بمنح سرّ التوبة تواترت الشهادات المثبتة لهذا السرّ وذلك دفعًا لبدعة نوفاسيان التي تسرّبت بين طبقات الشعب . فلمّا تفاقم الامر نهض القديس باسيان اسقف مدينة برشلونة المتوفّى سنة ٣٩١ وبعث برسالة الى احد المتمكنين باعداب هذه البدعة فقال فيها: « تدّعي بان الله وحدهُ يقدر ان يحلّ الخطايا وينفرها فبذا عين الصواب غير انّ الله هو مصدر سلطة الكهنة فما يأتي بهِ هؤلاء في سرّ التوبة يُعزى اليهِ تعالى. وان كان الامر بخلاف ذلك فلاي سبب قال الرب لرسلهِ: كل ما حللتموهُ على الارض يكون محلولًا في السماء . لماذا تلفّظ بهذه الكلمات اذا كان لا يسمح للبشر بالحلّ والربط ؟ أتزعم ان هذه السلطة لم تُمنح الّا للرسل ؟ فاذا كنت اصبتَ بقولك فالرسل فقط يقدرون دون غيرهم أيًا كان ان يعتمدوا ويمنحوا الروح القدس ويزكّوا الخطأة لان سلطة العماد ومنح الروح القدس وعلمٌ جزًا أعطيت للرسل كما اعطيت لهم سلطة الحلّ والربط » . وهذا ضلال مبين (٣

١) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٣٩ ص ١٥٤٧)
٢) اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٣٣ ص ١٠١٦ ج ٣٨ ص ٨٠٢)
٣) اطلب اعمال الآباء اللاتينيين (ج ١٣ ص ١٠٥٧)

٨ (الكنيسة الافرنسية): يخبرنا القديس ايريناوس الذي سُقّف على مدينة ليون ومتأقاتها في اواخر الجيل الثاني « ان بعض النساء انقدنَ الى آراء الهراطقة ومشينَ على خطّتهم وسلّمنَ بتعاليمهم ثم رجعنَ الى الصراط المستقيم وسألنَ التوبة عن خطيئتهنَّ واقررنَ بذنبهنَّ جهارًا فأُدرجنَ في عدد التائبين ونلنَ المغفرة ». ولكن مَن قبلنَ الحلّة ؟ فلم يبح لنا به القديس المذكور. وقال القديس هيلاريوس في شرحه لانجيل القديس متى: « ان السيد المسيح قلّد الرسل سلطةً لهم بها ان يربطوا البشر على الارض اعني به ان يتركوهم في قيد الخطايا او يحلوهم اعني به ان يفتحوا لهم باب الخلاص او يمنحوهم المغفرة ». (١ وقال جناديوس احد كهنة مدينة مرسيلية في الجيل الخامس: « من ارتكب خطيئة جسيمة بعد العماد فانى استحلفهُ ان يكفّر عنها جهارًا بالتوبة وبعد ما يقبل الحلّة من الكاهن عليه ان يدخل في تعداد الذين يتناولون جسد الرب » (٢

نمسك اليراع عند هذا الحدّ هربًا من الاطالة ودفعًا للسآمة مع اننا لم نذكر الّا يسيرًا من كثير لكن فيما اتينا به كفافًا للمطالع وعبرةً للمستبصر فيتّضح لديه ان في تلك العصور القديمة عرفت الكنيسة سرّ التوبة وحثّت على الخطأة من بنيها بالخضوع الى قوانينه وشروطه وان الآباء قد اجمعوا الكلمة على دحض اهل البدع كافي ونوفاسيان ومن حذا حذوهم لانهم رغبوا بوضع حدّ للسلطة التي اعطاها السيد المسيح لرسله وخلفائهم. اجل اننا لا ننكر ان طريقة منح هذا السرّ في تلك الأيام تختلف بعض الاختلاف عمّا يعهدهُ الآن الشعب المسيحي انما ذلك لا يتجاوز العوارض الخارجيّة. فاذا كان الامر على هذه الحال اذا كان التاريخ شرقًا وغربًا يثبتهُ ويفحم كل مقاوم وناكر فكيف يجسر البعض ويرمون الكلام على عواهنه ويرشقون بسهام الشكوى اساقفة وكهنة الجيل الخامس والسادس عازين اليهم الافتراء والتمويه والاختلاق ؟ فاين بيّناتهم الساطعة وبراهينهم السديدة لتقابلها مع شهادات الآباء والمؤرخين منذ ابتداء الجيل الثاني وقد اقتبسناها واوردناها من مظانّها. فليوضحوا لنا ايضًا كيف اتفق ان النساطرة واليعاقبة وقد انفصلوا عن الكنيسة قبل الجيل السادس

(١ اطلب اعمال الاباء اللاتينيين (ج ٩ ص ١٠٢١)

(٢ اطلب (ج ٥٨ ص ٩٩٤)

اقرُّوا بسرّ التربة وحفظوهُ الى عهدنا هذا وجعلوهُ لهم حتمًا لازبًا. ولسنا بهذا القول نقرّع من وقع في خلده ريب في هذا المعتقد لكنهُ يجب على كل ذي عقل ألّا يدع الشك ينتابهُ بدون ان ينقّب ويطالع ويسأل حتى يبني علمهُ على ركن متين لاسيما في امر ذي علاقة وثيقة المرى مع الحياة الآتية. نتوسّل اليهِ تعالى ان يهدي عبادهُ الى الصراط المستقيم انهُ سميع وعليم

غَرَق بغداد

لحضرة الاب انستاس الكرمليّ

إذا جُلتَ في العراق او ما جاورهُ من الآفاق واصغيت الى اقوال الناس لا تسمع منهم سوى حديث واحد هو حديث الغرق غرق بغداد. وقد اخذ الهلع من قلوبهم كل مأخذ إذ لا يعلمون اذا كانوا يموتون في هذه الساعة او بعد ساعات. او يكون ذلك نهارًا او ليلًا. وعلى كل فلا ترى احدًا قد طاب خاطرهُ او قرَّ ناظرهُ في هذه الايام لمشاهدتهِ طغيان مياه دجلة وخروجها عن حدودها وسدودها وانفجارها الى السهول والزروع والبساتين المحيطة بالفراتين من الجانبين

وكل من رأى هذا المشهد البديع والرائع معاً يُحب ان يقف على مثل هذا الحادث في سابق تاريخ بغداد ليقابل الحال بالحال وقد طلب مني بعض الاخوان ان ارصد مقالة في هذا البحث وان ادرجها في المشرق الاغر فلبّيت طلبهُ وكتبتُ هذه السطور . .

كان دجلة في سابق الزمان نهر يجري فيهِ كل خير وتنبع من مياههِ كل ثروة وكانت اراضيهِ مخزن الاطعمة لديار العراق وما جاورها من الاصقاع احتلَّ سقيهُ الاقدمون من مشهوري الذكر وخامليهِ ومن معروفين ومجهولين من كلدان وبابليين واثوريين وفرس وپرثيين وساسانيين ويونان وغيرهم. وكان هذا النهر او كما يقول اهل العراق هذا الشط يفيض عليهم بكل بركة ونعمة. وما كان يضرُّهم الّا نادرًا والنادر لا يدخل تحت حصر الحاصر. والسبب هو انهم كانوا قد شقُّوا منهُ عدَّة انهر تتفرَّع

منهُ فيدفع فيها دجلة مياههُ الزائدة فتفيد اراضي تلك القرى مما يفيض عليها من ذاك الماء المخلوط بالتراب الاحمر الخصب الذي يقوم للزرع مقام ماء وسماد فتقريع تلك الارضون وتاتي بالمثل مائة مثل. وكان الاقدمون يكرون تلك القنوات يعني يحفرونها كل سنة عند نضوب مياهها لكي لا تدفن من الرمال المسحولة عميق تلك الانهر والسواعد لانها تاتي بالويلات والمضرات عوضاً من النعم والخيرات. وكل امة قامت في هذه الديار او تغلبت عليها اتخذت هذه الوسائل المذكورة متسلمة اياها الواحدة عن الاخرى. وهكذا فعل الخلفاء العباسيون في اول عهدهم بالخلافة فكانوا من المهتمين كل الاهتمام بمثل هذه الامور العظام. ولما اخذ ظلّ سطوتهم بالتقلّص مائلاً الى الزوال بدا اثر ذلك في جميع اعمالهم ومشاريعهم. ومن الجملة العدول عن اتخاذ الوسائط اللازمة لكري الانهر الفرعية وتنظيفها من الرمال التي تجرُّها المياه لاسيما مياه الفيض في فصل الربيع من السنة

واول ما جاء ذكر فيضان دجلة بعد بناء بغداد وتدفّق مياههِ الى خارج حُدودهِ وعيثهِ بسهول بغداد ومنع المارّة من السفر في ارجائهِ كان في سنة ٢٢٠ هـ = ٨٣٦ م وذلك في شهر نيسان حينما كان المعتصم يُريد القاطول ويريد البناء في سامرّا فقد صرفهُ حينئذٍ عن قصدهِ كثرة زيادة دجلة فامتنع عن الحركة وانصرف الى بغداد الى الشماسية حتّى نزلت المياة الى مجاريها فعاد هو الى قضاء اعمالهِ. وعليهِ فلم يلحق دجلة ضررٌ بالمدينة الزوراء (راجع تاريخ الطبري ٣: ١١٨٤)

وفي سنة ٢٣٥ هـ = ٨٤٩ م تغيَّر ماء دجلة تغيرًا على خلاف المألوف وهو يكون عند اقبال الفيضان أو إقبال الامراض الوافدة كالوباء والطاعون والهيضة وكان لون مائهِ الى الصفرة فقزع الناس لذلك وتطيَّروا من هذا اللون المخيف ثم صار في لون ماء المدود وذلك في ذي الحجّة لكن العاقبة كانت محمودة وسكن جأش دجلة بدون ان يضرّ باحد (راجع الطبري ٣: ١٤٠٣)

وفي سنة ٣٦٨ هـ = ٩٧٨ م زاد دجلة زيادة مفرطة فغرق كثير من الجانب الشرقي والجانب الغربي واشرف الناس على الهلاك. ٥ اه عن دائرة المعارف في مادة بغداد:

وفي سنة ٤٦٦ هـ = ١٠٧٣ م كان الغرق لزيادة دجلة زيادة مفرطة فغرق الجانب

الشرقي وبعض الغربي وكان السيل قد جاء في الليل وطفح للماء من البرية مع ريح شديدة ودخل من المنازل ونبع من البلاليع والآبار فهلك خلق كثير تحت الردم ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدي. (عن دائرة المعارف)

وفي سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م زاد زيادة مفرطة فاغرق الطرقات والغلّات الشتويّة والصيفيّة وغلت الاسعار. (عن الدائرة)

وفي سنة ٥٥٤ = ١١٥٩ م كثرت الزيادة في دجلة وخرج القُورَج (مجرى الماء) فوق بغداد فامتلأت الصحارى وخندق البلد ووقع بعض السور فغرق بعض القطيعة وباب الازج والمامونية. ودبّ الماء تحت الارض الى اماكن فوقعت واخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يُقدَر عليها. ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقيت المحالّ لا تعرف. وانما هي تلول فاخذ الناس حدودهم بالتخمين (عن ابي الفرج ص ٣٦٣)

وذكر هذه الزيادة صاحب الدائرة بقوله: وسنة ٥٥٤ هـ (وفي الاصل المطبوع ٤٥٧ وهو خطأ طبعي) كثرت الزيادة في دجلة فخرق السدود فوق بغداد واقبل المد الى المدينة فامتلأت الصحاري وخندق البلد واتسد الماء السور وخرقه وغرّق اكثر من ١٥ محلّة ودخل الماء تحت الارض فهدم بيوتاً كثيرة. ثم تهدّم السور وخربت المنازل وجُهلت المحال فكان الناس ياخذون حدودهم بالتخمين واما الجانب الغربي فغرقت فيه المقابر وانخسفت القبور المبنيّة وطفا الموتى على وجه الماء فغرق المشهد والحريميّة فكان من ذلك بلاء عظيم. اه

وفي سنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م زاد زيادة مفرطة لم يسبق لها نظير فقلق الناس اشدّ القلق واجتمع الخليفة والوزراء والعامّة على سدّ الثغور فغلبهم الماء ونبع من البلاليع والابار وغرق مشهد ابي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وقرية الملكية والكشك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان. واما الجانب الغربي فتهدم فيه اكثر القرية ونهر عيسى والشطيّات وخربت البساتين ومشهد باب التبن ومقبرة احمد بن حنبل والحريم الطاهري وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى واكثر محلّة قطفتا. وقد جرى اكثر من ذلك سنة ٧٢٥ هـ كما سيأتي في محلّه (عن الدائرة)

وفي سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م حدث مدّ دجلة مدًّا عظيماً هائلاً وغرق دورٌ كثيرة

وغرق سفينتان فهلك فيهما نحو خمسين نسمة . (عن ابن العبري ص ٤٣٩)

وفي سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م « زاد الدجلة زيادة مهولة فغرق خلق كثير من اهل بغداد ومات خلق تحت الهدم وركب الناس في المراكب واستغاثوا بالله وعاينوا التلف ودخل الماء من اسوار البلد وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون داراً وانهدم مخزن الخليفة وهلك شيء كثير من خزانة السلاح (انتهى بحرفه عن طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥ : ١١٢)

ووصف رشيد الدين هذا الغرق وصفاً هذا بعض كلامه قال : « في اخر صيف سنة ٦٥٤ حدثت زيادة غير مالوفة فغرقت مدينة بغداد حتى ان الماء غطّى طبقة المنازل العليا . ودام الغرق في ذلك الصقع مدّة ٥٠ يوماً ثم اخذ الماء بالنضوب وبقي نصف ارض العراق غامراً وحتى اليوم (اي الى يوم الكاتب المذكور) يضرب اهل بغداد المثل بغرق خلافة المستعصم . وفي اشتداد هول هذه الطّامة الكبرى كان الاجاجرة وهم من اراذل الناس واشقاهم يهجمون على اهل المدينة ويظلمونهم ويأخذون اموالهم» . (انتهى معرباً عن الفارسية)

وفي سنة ٧٢٥ هـ = ١٣٢٤ م «غرق ماء دجلة ارض بغداد حتى صارت المدينة كالجزيرة وانحصرت الناس بها وخرب كثير من المحالّ في الجانبين . (عن الدائرة) . وفاق بكثير غرق سنة ٦١٤ و٦٥٤

وفي سنة ٧٥٧ طغى طغياناً فاحشاً فاخرب جانباً عظيماً من المدينة . وقد أرّخ هذا الحادث سلمان الساوجي ببيتين من الشعر الفارسيّ وهذا نصّهما :

بسال هفصد وپنجاه وهفت گشت خراب بآب شهر معظم كه خاك بر سرآب
دريغ روضهٔ بغداد ان بهشت آباد كه كرده است خرابش سپهر خانه خراب

ومعناهما في سنة ٧٥٧ هـ = ١٣٥٦ م خرّب الماء المدينة المعظمة اتمّ خراب حتى الله ذلك الماء . قوا أسفاه عليك يا بغداد يا روضة البلاد التي هدمت سماؤك ما هدمت وخربت ما خربت » . (عن كتاب گلشن خلفاء لمولفه مرتضى نظمي زاده ص ٩٤ و٩٥ من نسختنا الخطيّة)

وفي سنة ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ م امطرت السماء أمطاراً وابلة بل امطاراً طوفانيّة زادت مياه الفراتين بين دجلة والفرات واجتمعت مياهما في سهول العراق

فغطّت الاراضين والزروع المجاورة لولاية بغداد كلها فاحدثت من الاضرار والتلف ما لا يصفهُ وصف كاتب مُجيد. وكان ما يحيط بالقلعة يُشبه بحرًا غطمطمًا في وسطهِ جزيرة محصَّنة لا يقربها جندي باسل ولا يخرج منها احدٌ والركان من المتاديد الجبابرة وتدفق سيل الماء في خندق بغداد وكان يومئذٍ عميقًا على خلاف ما هو عليهِ اليوم وغدا « برج الفتح » (واسمهُ بالتركيـة فتح قلّه سي) وكان قريبًا من الباب الابيض نسيًا منسيًا او كانهُ لم يكن شيئًا مبنيًا. وفي عدة مواطن تهدَّمت الابراج وخربت الفصـلان حول المدينة وانسلع السور في مواضع مختلفة. فبـذل الوزير محمَّد باشا الخاصكيّ الاصفر الرنّان والابيض الفتّان بسماحةٍ لا تضاهى لا بل وبذل من التعب والنصب ما حبَّبهُ للناس كلهم اجمعين. وبعد الغرق اعاد بنـاء « برج الفتح » وسائر المواطن التي عبث بها الماء او اضرَّها التر او أخربها عن اخرها. وقد أصلح او بنى كل ذلك على أُسس متينة وأركان حصينة حتى ان جميع الرازة (جميع رازٍ وهو رئيس البنّائين) شهدوا لهُ بفضلهِ وحسن اعتنائهِ بالمباني وقد أرّخ اكبر شعراء بغداد يومئذٍ بناء ذلك البرج الضخم بقولهِ: « درزدي برقلهٔ ممتازي محمَّد باشا ». ومعناهُ: « أعاد بناء هذا البرج الممتاز محمَّد باشا » ومجموع حروفهِ التركيَّة تساوي ١٠٦٨ وهي سنة ترميم البرج المذكور وهي السنة الموافقـة لسنة ١٦٥٧ او ١٦٥٨ م

وفي ذلك الاوان تنفَّس الوزير نفسهُ من طغيـان الرافدين والغرق الذي شمل انحاء المدينة فبرح الحلة المعروفة « بالمنطقة » وذهب فسكن قصرًا عامرًا كان واقعًا في غربيّ بغداد. وقبل ان يأخذ الغرات بالرجوع الى عقيقهِ بعد شرودهِ عنهُ وجد في تجوالهِ في عدة محلات من احياء المدينة مُندقعًا يدفع فيهِ مياههُ قريبًا من المنطقة. وللحـال نشأت انهر سريعة الجري حالت دون تجوّل الناس في حوالي دار السلام ولهذا انحصروا في دائرة ضيّقة النطاق لا يستطيعون ان يخرجوا منها ولا ان يرجعوا اليها ممن خرج منها قبل ازدياد المياه. فامر الحاكم ان تُلقى عدة جسور على تلك الانهار لتجمع بين المواضع والبيوت والمحلات القريبـة. وفي بعض المواطن التزم الاهلون ان يتخذوا أكلاكًا (أطوافًا) وزوارق وقففًا وسفنًا ليعبروا من مكان الى مكان آخر

هذا وان الباشا افضت بهِ الحـال الى ان يضرب خيمهُ في نفس ذلك الموضع وحشد هنـاك جمًا غفيرًا وسخرهم ليقيموا سدودًا محكمة عظيمة هائلة الكبر تمكّن

الناس من المسير والتجوال في اهمّ المواضع من المدينة . وكان الوزير نفسهُ قد دبَّر رسم هذه السدَّة كما انهُ قوّى سائر السدود والمسنَّيات الموجودة في عدة مواضع واحكم بناءها . ولذا بقيت تلك الآثار مدة سنين طويلة تشهد على ما كان لذلك الوزير الهمام والسيّد المقدام من الايادي البيضاء على مدينتنا الزوراء

زراعة قصب السكر

للشاب الادیب میشال افندي الياس سماحة

ممَّا لا يختلف في شأنهِ اثنان ان على الزراعة تتوقف حياة البلاد وعلى نموها تترتَّب سعادة الاهلين وازدياد الثروة والتقدم والعمران . واي ارض حلَّها الخصب خفقت فوقها أعلام الرفاه واليسر والهناء والبشر . قال ابن حزم الاندلسي : « اعلموا ان الراحة واللذة والسلامة والعز والاجر في اصحاب فلاحة الاراضي وفلاحة الاراضي اهنأ المكاسب جملةً » . ويُروى انه قيل لابي هريرة : ما المروَّة . فقال : تقوى الله واصلاح الضيعة . ولا يخفى ما في هذه الاقوال من المعاني الجليلة والتعابير البليغة . ومن اقوال الدكتور فيجري بك الكيماوي الشهير في كتابهِ علم الزراعة ما يأتي : « ان الزراعة متى جعل لها نجاح وتقدَّم اتسع بها نطاق التجارة فتتمتع جميع الناس بذلك وتتقوى الصناعات الاخرى فلا يحصل تقدّم في التجارة كما ينبغي الّا اذا اتقن فنّ الزراعة » . وهو قول يشير الى ان الزراعة هي المصدر الباعث للعمران والترقي فعلى المحصولات الزراعية تقوم في كل واد دولاب الاعمال في المعامل والدور الصناعية . ولذا قد شبَّه الاقدمون تربة الاراضي الزراعية الخصبة بالتبر وعنوا عن طينها بالذهب الابريز وعن سمائها بالباعثة للخيرات والجائدة بالنعم والبركات الى غير ذلك من الاسماء والنعوت الحسان

هذا ولمَّا كان على الزراعة قيام الحياة والمعيشة لكل انسان . وبدونها ضياع وهلاك كل حيوان فلذلك لا تزال كما كانت منذ القدم موضوع اهتمام الشعوب والامم ومحور الاختبار والعمل والدرس لكثيرين من العلماء المبرزين الذين قد اتقنوا فنونها واضافوا الى دروسها جملة من العلوم كعلم الفيسيولوجيا والنباتية وعلم الحيوان وعلم الميخانيكا

وتحريك الاثقال وعلم الكيميا الى غير ذلك مما يُدرس الان في المدارس المختصة بفن الزراعة

أهمية في الزراعة

اعتاد مزارعو بلادنا على استغلال الحرير والحنطة والخمر وبعض محاصيل أخرى قد ألفوا زراعتها واستنباتها. غير ان لزراعة التوت النصيب الاوفر في اعمالهم لان التوت يشغل الجزء الاكبر من اراضينا الزراعيَّة سواء كان في السواحل والاساكل البحريَّة او في السهول الداخليَّة كما في اعالي الجبال. وللبلاد من زراعة هذا الصنف محصول عظيم تقوم على موسمهِ حركة التجارة والاشغال ويدور على فوائدهِ دولاب الصناعة والاعمال. ويرى البعض ان لشططاً في اقطاع المزارعين عندنا على زراعة هذا الصنف بتخصيص الجزء الاكبر من الاراضي الزراعيَّة في استنباتهِ لانهُ كثيرًا ما تفاجئ مواسمهُ الطوارئ السيئة والآفات الرديئة فتقضي عليها بالتلف والعدم فالواجب على اهل الاملاك أن لا يقصروا نظرهم على صنف واحد بل يخصُّوا قسماً من الاراضي لاجل درسها واختبار الاصناف المناسبة مع جلب البزور الحسنة وانتخاب الانواع الجيدة. ولست اشير بذلك الى ابطال زراعة التوت من البلاد او الى تفضيل سواها عليها من المحاصيل الاخرى والتي يجهل مزارعو بلادنا امرها تماماً. بل جلُّ ما ارمي اليهِ هو الاشارة الى بذل شيء في نفع العموم وصالح الكل ووجوب عمل التجربة والامتحان في الاراضي رغبةً في ادراك الافضل والاحسن. واستجلاب المفيد والانفع سيما واننا نرى ان في سواحل سوريَّة وفي داخليَّة البلاد سهولًا واسعة واراضي جيدة مخصبة يحسن زراعتها باصناف عديدة ويسهل اعادة اختبارها لاخراج احسن المحاصيل. حدثني في المدَّة الاخيرة شخصٌ عالم بالاصول الزراعيَّة لاسيما باصول بلادنا الاقتصاديَّة قال: يوجد في سوريَّة اراض كثيرة تناسب وتصلح لزراعة محاصيل جمة مجهولة لدينا. وخصَّ بقولهِ السكر زاعماً ان زراعة هذا النبات تجود عندنا كثيرًا خصوصاً في السواحل وعلى الشطوط البحرية حيث تشاهد لهذا النبات عند البعض زراعة حسنة نامية. فاذا غرس عندنا هذا الصنف في الاراضي الجيدة وعلى حسب الاصول الزراعيَّة وقُدمت لهُ الخدمة اللازمة مع وجود الادوات النافعة لتكرير عصارتهِ لا بُدَّ ان يعود على البلاد بمحصول وافر ودخل عظيم

٢ً منشأ قصب السكر

هو من الفصيلة المعروفة في عالم الطبيعة بالنجيليَّة (graminées) من صنف النباتات السكرية وقد سمي بقصب السكر للدلالة على شكلهِ ومعناه . فهو يماثل بطول ساقهِ وعقده القصب والخيزران (jonc) والخيزران الهندي (bambou) وغير ذلك مما هو على صورتهِ من علم النبات . وقد أُضيف الى السكَّر لما يحتوي من المادة السكرية التي تُستقطَر منهُ . وجذور قصب السكَّر ليفيَّة تنقسم الى عُقد ويبلغ ارتفاع القصبة من ثلاثة الى اربعة امتار واوراقهُ مغمدة على شكل الحراب تتقارب او تتباعد على اختلاف وضع العقد في قربها وبعدها ولهذا القصب ازهار كالسنبلة ليِّنة الملمس بيضاء اللون . ومما رواه ابن بيطار في مفرداتهِ (٢ : ٢٢) عن انواعهِ قال : « قصب السكَّر انواع فمنهُ ابيض ومنهُ اصفر ومنهُ اسود والاسود لا يُعصر وهو يغلظ ويعبل حتى لا تحيط بهِ الكفَّان وانما يُعتصر الابيض والاصفر ويقال لعصارتهِ عسل القصب واجوده ما يُجاء بهِ من ارض الزنج اصفر مثل الاترج والقند ما يجمد من عصر قصب السكر ثم يتخذ منهُ السكر ويقال لما جُعل فيهِ القند من السويق وغيره مقنود ومقند كما يقال معسول ومعسَّل » . وقال داود الانطاكي في التذكرة (١ : ٣٦٣) : « قصب السكَّر اجودهُ المصري فالهندي الغليظ الغض الكثير الماء الصادق الحلاوة الطويل العقد » . ويذهب المؤرخون ان منشأ زراعة هذا الصنف كان قديماً في افريقية وفي بلاد الهند . وفي الجيل الثالث من التاريخ المسيحي نقلهُ العرب الى بلادهم وقد ذكرهُ نصري خسرو في رحلتهِ الى الشام في القرن الحادي عشر (ص ١٢) قال انهُ وجد مزارعهُ في طرابلس . ولم تدخل زراعة قصب السكر الى اوروبة حتى اوائل القرن العاشر وقد كان ذلك بفضل العرب الذين نقلوا ايضاً اذ ذاك الى عالم الافرنج شيئاً من علومهم ومعارفهم الصناعيَّة والزراعيَّة . وروى بعضهم ان زراعة قصب السكر قد دخلت اوربَّة في الجيل الثاني عشر بواسطة الصليبيين

فمن جزيرة قبرص نقلت فسائل هذا النبات الى جزيرة صقليَّة ثم الى اسبانية وفي علم ١٥٢٠ سعى الاسبان بنقل زراعة قصب السكر الى جزيرة مادِيرة (Madère) ثم الى مستعمراتهم الافريقيَّة في جزائر كاناري فنما هنالك نمواً حسناً وتوفَّرت محصولاتهُ

ثم سعى الاسبان والبرتغاليون بعد افتتاح اميركة فادخلوا زراعة هذا الصنف الى مستعمراتهم ونشروها في اكثر البلاد التي فتحوها . فعمّت اذ ذاك هذه الزراعة جميع الجزائر والنواحي ولاسيما جزائر الارخبيل الاتيلي وتقدّمت في تلك البلاد تقدماً عجيباً خصوصاً في جزيرة سان دمنجو التابعة للدومنيك ولهذه الجزيرة شهرة واسعة بحسن زراعتها ووفرة محصولها من قصب السكر . ويزرع هذا النبات ايضاً في بلاد المكسيك والبرازيل وفي شمالي اميركة وكذلك في شمالي الهند وفي جزائرها الغربيّة وفي الصين واليابان وفي جزيرة مدغسكر وجزائر صندويتش وفي جزائر فيجي الانكليزية وفي جزائر سولثان الافرنسيّة وفي جزيرة جاوة الهولندية وفي سهول افغانستان وفي بلاد العرب وبلاد مصر لاسيما الصعيد ويزرع ايضاً قصب السكر في جهات مختلفة في سواحل بلاد اليونان ومقدونية وبر الاناضول وبر الشام الى غير ذلك

٣ اصول زراعته

تنمو زراعة قصب السكر في البلاد الحارّة اكثر مما في خلافها غير انّ اكثر نموه في تلك المناطق قد يكون برّيًا وعلى حالته الفطرية . والمألوف في زراعة هذا النبات انهُ ينمو على الشواطي البحرية خصوصاً في الجزر . واحسن الاجناس ما كان اصل فسائله من جزيرة سان دمنجو او من بلاد الفلسك ويقال ان المصريين استجلبوا من تلك البلاد اصناف التقاوي التي تزرع الان في مصر . واذا وافى زمن النضج ظهر في اعلى ساق هذا النبات زهر وبزر صغير ويندر ظهور مثل ذلك في زراعة القصب البستاني ومع هذا فلمّا يعتني المزارعون في توليد السكر من بذره بل من الفسائل والعقل . ويذهب البعض الى ان اهمال توليد هذا النبات من بزره وتكرار زراعته من الفسائل والعقل قد اضعف بزرهُ جدًا حتى لم يعد يتولد منهُ . غير انهُ يؤخذ من الاخبار الاخيرة ان بعض العلماء من الباحثين في تحسين زراعة هذا النبات قد توفّقوا الى وجود نوع جديد من قصب السكر استنبتوه من بزره وهم يزعمون ان محصول زراعة الصنف الجديد يزيد ٢٥ في المائة على محصول الزراعة المعتادة

وتبتدئ زراعة قصب السكر في اوائل الفصل الربيع وهو يجود الّا في الاراضي الجيدة المخصبة القريبة من المياه فتحرث اولًا الاراضي على شكل مربعات او على هيئة

خطوط تكون المسافة بين كل خط وآخر نصف متر على الاقل ثم تُقطع الميدان قِطَعاً متوازية. وهم ياخذون من كل عود ثلاث او اربع فسائل تعرف عند الزارعين بالعقل ويضعونها في الارض وضعاً افقياً على احد جانبي الخطوط. ثم يغطونها بنحو اربعة قراريط من الطين ويجعلون مسافة البعد بين كل عقلة واخرى نصف متر على الاقل لسهولة سير المياه وسرعة جريانه فيما بعد عند السقي وخصوصاً مجرى الهواء ونفوذ الضوء والحرارة ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد ويجب على الزارعين ان يعطوا هذا الامر حق الملاحظة والانتباه. وعند نموّ الزريعة وحصولها على ما يقارب قدماً الى قدمين من الارتفاع يُحفر حولها ثم يُفصل عنها جميع الفروع الضئيلة بحيث لا يُترك في حفرة الفسيلة الواحدة اكثر من ثلاثة ازرار جيدة صالحة ويعاد حفر الارض بعد ذلك بشهر واحد تقريباً ويُفرز عنها جميع النباتات والحشائش الغريبة ثم يوزعون على الحفر المقدار المناسب من السماد

ويتمّ نضج قصب السكر في اول فصل الشتاء وقد يكون قبل ذلك بشهر واحد ويكون النبات قد بلغ اذ ذاك من متر ونصف الى مترين ارتفاعاً ويزيد على ذلك في في الاراضي الجيدة الخصبة فيحصل ارتفاعهُ ثلاثة امتار ويبلغ عدد عقده الى ١٨ عقدة ويكون سكرهُ اشدّ حلاوة. واذا أُهمل قطعهُ في وقت نضجه فقدَ قسماً من سكره ومثلهُ اذا تُرك زمناً طويلاً قبل العصير. وهم يتركون جذوره في ارضها فتبقى حتى اذا وافى زمن الزراعة نبتت فتعاد اليها الخدمة اللازمة ويستمر المزارعون جذور قصبه على مدة ثلاث سنين في الاراضي الجيدة الخصبة غير ان محصولهُ في السنة الاخيرة يكون اقل فائدة مما تقدّمها:

ويفاجئ زراعة هذا النبات في بعض الديار آفة الدودة وهي المعروفة عند العامة بالسوس. قال الدكتور فيجري بك بهذا الصدد في كتابه علم البراعة في حسن الزراعة ما يأتي بحرفه:

ويُعرف نضجهُ (قصب السكر) باوراقه التي تصير صفراء وبنموّ دودة تكون في باطنه وهذه الدودة تنسب الى فراش ليلي يُسمى نوكتوا (noctua) فتكوّن هذه الدودة ناصوراً في طول العود من اعلى الى اسفل فيتلف محلهُ ويتلوّن باللون الاحمر الدموي واحياناً ينتشر هذا الناصور في جميع طول العود فيصير ذا طعم حامض ورائحة كريهة. ومن فضل الله سبحانهُ وتعالى ان هذه

الدودة لا تصيب قصب السكر الا زمن نضجهِ ولا تنتشر على نباتات جديدة منهُ .وحينئذٍ ينبغي الاسراع بقطع القصبِ من الارض لئلا يصاب جميعهُ بهذا المرض

٤ استحضار السكر وزمن استعمالهِ

يُقال ان استحضار السكَّر قد نشأ اولًا في الهند غير ان المادة السكرية كانت معروفة لدى الصينيين قبل زهاء الف سنة قبل التاريخ المسيحي . وقد ظلَّ السكر اجيالًا عديدة مجهولًا من عالم اوربَّة وما كانوا يستعملونهُ لغير العلاج وكان نادرًا جدًّا عندهم يُروى انهُ كان يباع في فرنسة في زمن حكم هنريكوس الرابع بالاوقية . وما كان يستجابهُ اذ ذاك سوى بانعي العقاقير والادوية الطبيَّة . وكان يدعى عندهم بالملح الهندي (sel indien) : وفي عام ١٦٠٥ استدلَّ الفرنساوي اوليفيه دي سير (Olivier de Serres) على وجود المادة السكرية في البنجر (betterave) ثم تبعهُ بعد ذلك في هذا البحث الكيماوي العلامة ماركراف (Margraff) الالماني وفي عام ١٧٩٩ عرض الكيماوي اشارد (Achard) على انظار ملك بروسية في برلين مبتكرات مصنوعاتهِ من السكر . وقد اهتمَّ ايضًا بعد ذلك كثيرون من ارباب العلم بصناعة استخراج السكر من البنجر

وفي عام ١٨١٠ منع بونابرت دخول سكر القصب الى اوربَّة فضعف بذلك شأن هذه الزراعة النافعة لكنَّ سقوط نابوليون اعاد لهذه السوق رواجها بعد كسادهِ

ويتحصل من القصب كمِّية كبيرة من السكر تزيد كثيرًا على ما يستخرج من البنجر فهم يعدلون من ٧٥ الى ٨٠ قيمة المتحصَّل من قصب السكر من المادة السكرية وقد لا يتحصل ٧ بالمائة من البنجر . اما تحضير السكر وعصره وكيفيَّة تكريره الى غير ذلك فلهُ عمل خاص ووصف يستغرق مقالة مطولة تخرجنا عن جادة الموضوع الذي نحن في صددهِ . فندعه لفرصة أُخرى

٥ فوائد قصب السكر

ان الفوائد العائدة من زراعة قصب السكر كثيرة ومنافعهُ جليلة اهمها السكر المستخرج من عصارتهِ فيُبنى على هذه المادة السكرية عمل خطير يقوم بجهاز اكثر الاطعمة ومنهُ غذاء مفيد للصحة والاجسام . ويستخرج من قصب السكر مشروب روحي يسمونهُ الروم (rhum) ويستعملونهُ في الصنائع والفنون ونحوها . ويتحصل من بقايا

عيدان قصب السكر نوع من الاسبرتو وهو من احسن الاجناس . ويصنع اهل صعيد مصر عسلًا يستخرجونهُ من عصارة القصب يشابه عسل النحل بحلاوتهِ وشكلهِ ويصدرون منهُ كثيرًا ضمن زلع الفخار ويباع منهُ في عموم القرى والجهات ويسمونهُ بعسل القصب . امَّا فوائد السكَّر فمتعدّدة يخرجنا ايضاحها عمَّا تحرَّينا وصفهُ . وكذلك انواعهُ كثيرة منها سكر النبات وهو النقي المتبلور ويُلوَّن باللون الازرق احيانًا بمنقوع زهر البنفسج ثم السكر المحرق وهو الذي قد اثر فيهِ فعل الحرارة والسكر المكرَّر وهو الخام الذي قد جُرِّد من المواد الغريبة . وجميع هذه الانواع تستعمل ملطفة صدرية ومصلحة لطعم الادوية وغير ذلك ممَّا لا حاجة الى الاتساع فيهِ وفي ما قلنا كفاية لبيان اهميَّة زراعة قصب السكَّر وما يترتب عليهِ من الارباح الطائلة لاسيما في سواحل بحر الشام التي توافق تربتها هذا الصنف وتجود فيها على غاية ما يُرام

الآداب العربيَّة في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

وقد خلَّف لنا آثارًا ادبيَّة اوسع من السابقين رجلٌ سبقت لنا ترجمتهُ واطراء فضلهِ في باب التاريخ (ص ٤٧٠) نقولا الترك فانَّطرل باعهِ في الاداب ليس دونهُ في التاريخ ولدينا من نظمهِ الرائق ونثره المسجع الفائق ما يشهد لهُ بالتقدُّم بين آل عصره . وفي مكتبتنا الشرقيَّة نسختان من ديوانهِ تنيف النسخة على ٤٠٠ صفحة ترى فيها كل مضامين الكتابة في الرثاء والمدح والوصف والمزح . وقد عارض اصحاب المقامات فوضع منها احدى عشرة مقامة نسبها الى راوٍ دعاهُ الحازم ومسفار فكه سمَّاهُ ابا النوادر . وفي كتابنا علم الادب (١ : ٢٧٨) مقامة منها وهي الاولى المدعوَّة بالديريَّة نسبةً الى دير القمر قدَّمها المؤلف للامير بشير واودعها من حسن التعبير وبديع اللفظ وبليغ المعاني ما يدلُّ على براعتهِ في فنون الانشاء . امَّا شعرهُ فنسجم سهل المأخذ مطابق لمقتضى الحال مع كثرة التفنُّن في النعوت والاوصاف وفيهِ مع ذلك بعض الضعف اذ نبغ في الشعر بجودة قريحتهِ دون الدرس على استاذ يلقنهُ ومعلّم يرشدهُ . وها نحن نثبت هنا شيئًا من

شعره لافادة القرّاء وتنويهاً بحسن صفاته فمن ذلك قوله في مدح الامير بشير وهي اول قصيدة قالها فيه:

دنا البشرُ الحميد المستطابُ واشرق في معاليهِ الشهابُ
وتمَّ لنا المنى بمزيد أمن بهِ زال الشقا والاضطرابُ

الى ان قال:

عزيمتهُ الوقية في الوغى كم بافئدة العدا منها ارتهاب
وكم رنّت سمامها ارتعاشاً اذا ما رنَّ في يدهِ القضابُ
غمام منهن هتنهِ البلايا ويخشى صوت صولتهِ المصابُ
وترتعد الحوادث منهُ خوفاً ويعلو الهول منهُ الارتقابُ
لهُ في المشكلات حميد رأي وحزم لم يزغ عنهُ الصوابُ
بلي الهيجاء في عزم شديد لديهِ لانت الصمّ الصلابُ
كماةُ الحرب عند لقاهُ فرّت كما فرّت من الليث الذبابُ
وان خفقت بنور سطاه صاحت غثا الضرغام وانقضَّ العقابُ
يُذلّ شاهما منهُ ويغني كما يفنى من الشمس الضبابُ
ملاذٌ مقصدٌ حصنٌ منيعٌ رجاءٌ لا يُردُّ ولا يخابُ
اذلَّ الله اعداهُ لديهِ وقد خضعت لعزتهِ الرقابُ

ولهُ ايضاً فيهِ من قصيدة قالها بعد واقعة حربٍ:

سواك الى المعالي ليس يدعى لانَّ الله احسن فيك بدءا
وزانك بالمزايا يا حميداً بهِ الدهر ارتضى واختار قنا
اميرٌ لا اميرٌ سواه يرجى لبك كامل خلقاً وطبعا
بشير خوَّل الدنياه بشرًا بهِ طاب الورى قلباً وسمعا
شهاب اوعب الافاق نورًا على نور الثريّا فاق سطعا
اذا اعددتهُ يوماً بفردٍ من الافراد كنت تراه سبعا
ندى كفّيه حلَّ عن انكفافٍ كانَّ الله اجرى فيهِ نبعا
فا الفضل ابن يحيى وابن طيٍّ وهل معنًى لمن بعدُ يدعى
بصارم عدلهِ كم بتَّ جوراً راحيا لانتصار الحق شرعا

وقال مهنئاً قدس السيد اغناطيوس قطّان بارتقائهِ الى السدّة البطريركيّة سنة ١٨١٦ وكان اسمهُ اولًا القس موسى:

خوَّلتَ يا فخر البطاركة العلا للشعب ثمَّ حسمتَ كلَّ نزاعِ
لمّا ارتقيتَ لسدّةٍ بك شرّفتْ يا كامل الاوصاف والاوضاعِ

وأنرتَ يا قطّانُ قُطان الدِيا ... رِ وفيك باهت سائرَ الاصقاعِ
يا حبر احبار البلاد وسيّدًا ... ابدًا لهُ عينُ الاله تراعي
ولك استفا الكرميُّ لمّا ان وفى ... حسن الدعا فه والاضراعِ
لبّاه بالافصاح ارّخت الهدى ... موسى لشعب الله افضل راعِ

ومن رثائهِ ما قالهُ في الشهيد بطرس عرّاش سنة ١٨١٨ لمّا قُتل في حلب بسعي جراسيموس الدخيل مع غيره من الكاثوليك:

كم بشكي قلبي الموجّع كلّما ... قد مضّهُ الهمُّ الذي قد كلّما
بل كم تراني عند ما يشتدُّ بي ... حرُّ الجوى اهمي الدامع عندما
يا حسرة الثكلاء ما الحسناء مذ ... كانت تئنُّ توجعًا وتألّما
تبكي نعم لكن على صخر الفلا ... وانا على صخر المُلى ابكي دما
واقجتساهُ بهِ ويا اسفي على ... ذاك الشباب النضّ كيف تثلّما
شُلّت يدُ الباغي الذي قد اهرقتْ ... دمهُ الزكي وحلّلت ما حُرّما
حيّاهُ من شهم شجاعٍ باسل ... بطل الى القتل المريع تقدّما
بذل الحياةَ الدنيويّة بالبقا ... واختار مجدًا سرمديًا دوّما
ثم فجعة بطرس كم فتّت ... كبدي وألقت في فؤادي اسهما
ثم فرقةُ بطرس كم ارجفت ... تلك الربوعَ واظلمت ذاك الحما
ثم لوعة بطرس كم أجّجت ... في مهجتي الحرّاء جمرًا مضرمًا
ما حيلتي ما طاقتي فنبتْ وها ... جلّدي وهاك الصبر مني مُعدما
طوباه اذ من بعد اصلح سيرةٍ ... ومناقبٍ منذ الصبا فيها نما
وافى الى سفك الدما بشهامةٍ ... وغشي المنايا مسرعًا متقحما
وانضمّ مُحرازًا مع الشهداء في ... جنّات خلدٍ بالسناء منعّما
يا طيب مثوًى ضمّ طاهر جسمهِ ... يا فوز من وافى اليهِ مسلّما
فلذاك قلتُ صِلوهُ تمجيدًا بما ... ربحى فتى دمهِ الزكي ورث السما

وهي طويلة. ومن نظمهِ ما قال يهجو بعض القوالين الذين يسرقون ابياتًا وقصائد قديمة وينسبوها لهم:

اصبح الشعر كالشعير مقامًا ... لا بل الشعر منهُ ارخص قيمه
غُرَّ من قد غدا بذا الدهر يقفي ... حقَّ ما فيهِ من لآلٍ نظيمه
حيثما قد غدت بنو الخلط تنشا ... فيهِ بئس المؤلفات الذميمه
وبهم كيف جوّزوا واباحوا ... هتك ما فيهِ من عروضٍ سليمه
يا لهم من فواجرٍ بغباهم ... والخطا غوّروا البحور العظيمه
نقضوا كل كاملٍ موزونٍ ... ذي احتكام وعوّجوا مستقيمه

افسدوا جوهر البسيط وفيه ركّبوا اقبح الصفات الذميمه
قلّ ان يُنقذ الخفيفَ فرارٌ منهمُ او تقى السريعَ هزيمه
ضمضموا الواقر المديد وامست بينهم حالة الطويل شؤومه
كلهم كالذئاب قوم لصوص يستحلّون سرقة محرومه
قاتل الله مثلهم من يسطو باقتراء على اليوت القديمه
كم جم ابكمٌ يقلّد قسًّا فيه قد كانت الفصاحة شيمه
بل وكم بينهم ترى مهذارًا فاغمًا شدقهُ كشدق جيمه
حرفة الشعر يا عبادُ توفّت فاسكبوا فوقها الدموع الحميمه
رحمة الله والسلامُ عليها حيث راحت من البين عقيمه
يدّعين الفحول فيها النبي وهي فيما ادّعوا به متهومه
عظمها في التراب ما زال يشدو يعلم الله اني مظلومه

ومن موشحاته ما قالهُ في مدينة طرابلس ومدح اهلها:

بأبي عهدُ التهاني والصفا زمنٌ مرَّ بطرابُلُسِ
يا هنا عيش رغيدٍ سلفا لي بذاك المعلم المؤتنسِ

دور

حبّذا الفيحاء اهلا كل نادْ والحمى المسور والركن المصونْ
كتب السعدُ عليها يا عبادْ ادخلوها بسلام آمنينْ
بلدةٌ طيبةٌ خير البلادْ والمقام المشتهى للناظرين
اهلها قوم لطاف ظرفا نعم اهل ادبٍ كرام الانسِ
ما لهم عيبٌ سوى حسن الوفا والخلوص المتأى عن دنسِ

دور

حيِّ يا ريحَ الصبا ذاك الكثيبْ بضواحيهِ وذيّاك المقامْ
وعلى كلّ محبٍّ وحبيبْ اتلي مني يا صبا الف سلامْ
واذا جزتِ بواديه المصيبْ بلّني شوقي لاداني الكرام
خبّريهم انّ جفني قد جفا بعدهم لذّات طيب السمرِ
وفؤادي راح يشكو الكلبا من هموم حتّى قبض النفسِ

وهو موشّح طويل. ومّما امتاز بهِ الترك بداعياتهُ واقوالهُ الفكاهيّة. فمن ذلك ما رويناهُ لهُ في كتابنا علم الادب (١: ٢٤٩) مناظرة بين الزيت واللحم. ومنها قولهُ يطلب من الامير بشير شروالًا وعمامة:

وشروالٍ شكا عتقًا وامسى يراودني التناق فما عتقتُ
وكم قد قال لي بالله ثقني وهبني كنت عبدًا لانطلقتُ

اما تدري باني صرتُ هرمًا وزاد عليَّ اني قد فنقتُ
فدعني حيث قلَّ النفع مني وعاد من المحال ولو رُتقتُ
ولا تعبأ بتقلبي لاني بعسر ابيك نوح قد لقيتُ
ولم يبرح مجدّد كل يوم عليّ النعي حتّى قد فلقتُ
وقلت لهُ عُنيتَ اليوم مني لاني في سواك قد اعتلقتُ
فأشعرتِ العمامةُ في مقالي لهُ فاستحسنت ما قد نطقتُ
فراحت وهي تشدو فوق رأسي لي البشرى إذن وانا عُتِقتُ

وممَّا نُقش من شعره في معاهد بيت الدين التي ابتناها الامير بشير قولهُ وهو مرقوم فوق باب احدى القاعات:

دارُ المعالي التي فاقت مفاخرها والعزُّ قد زادها حسنًا وجمَّلها
تزينت في معاني الظرف واكتسلت بقاعةٍ ارّخوها لا نظير لها

وكتب على دائرها هذه الابيات استغاثة الى العزّة الالهيّة على لسان الامير:

اللهُ انت الواحدُ الاحدُ والسرمدُ الازليُّ الدائمُ الصمدُ
حيٌّ عزيزٌ قدير خالقٌ ولهُ من في السماء ومن في ارضنا سُجُدُ
لا ربَّ غيرك يا مولايَ نعبدهُ ولا سواك الهًا فيهِ نعتقدُ
انت الغنا والمُنى والفوزُ اجمعهُ والعونُ والغوثُ والانجاء والمددُ
ما لي سواك غياثٌ لي اطالبهُ كلَّا وغيرك ما لي في الورى سندُ
خوّلتني يا الهي خير تسبة فكنت فيك بشيرًا انت لي عضدُ
فالقلبُ والروح كلٌّ فيك مشهدهُ والفكرُ والقلبُ والاحشاء والكبدُ
بل كل جارحةٍ مني وعاطفةٍ تصبو اليك وتار الحبّ تتّقدُ
اذ انت علّة نفسي انت مركزها يا رب كلٍّ ومنهُ الخلق قد وُجدوا
يا ربّ امنن بعفوٍ منك لي كرمًا واغفر جنايات عبد منك يرتعد
وجُد بحائقةٍ يا رب يعتبها ذاك النعيم السعيد الثابت الوطدُ

هذا ولو شئنا لاتسعنا في ذكر منظومات نيقولا الترك وانما نجتزئ بهذا القليل وفيه كفاية لتعريف طريقة ذلك الشاعر الذي كان من اعظم الدُعاة في النهضة الادبيّة في مبادئ القرن التاسع عشر وديوانهُ يستحقُّ الطبع لان صاحبهُ الاديب نظمهُ في وقت كسدت فيهِ تجارة الاداب فيشفع في ضعف بعض اقسامهِ الكثير من محاسنهِ

وممن نلحقهم بهولاء الشعراء بعض من معاصريهم النصارى ابقوا لنا آثارًا من فضلهم وهي تآليف ومصنفات ادبيّة غير الشعر واوّلهم جرمانوس آدم الحلبي الذي لعب دورًا مهمًّا في تاريخ زمانهِ. ولد في حلب في اواسط القرن الثامن عشر ونشأ فيها

ثم تخرج في الاداب الكنسيَّة والعلوم الدينيَّة والمعارف الدنيويَّة في رومية العظمى حتى اصاب منها قسماً صالحاً. وقد عُهدت اليهِ لاقتدرته عدَّة مهمَّات قام بها قياماً حسناً وتولى القضاء مدَّة في لبنان ولهُ تآليف متعددة تشهد لهُ بقوة الفهم واتساع المعارف واكثرها دينية منها كتاب ايضاح اعتقاد الآباء القديسين في الحاد المشاقين وهو سفرٌ كبير وايضاح البراهين اليقينيَّة على حقيقة الامانة الارثدكسيَّة وكتاب الجامع الكباسوطيوس (Cabassut) ولهُ تآليف اخرى شطَّ فيها عن تعليم الكنيسة الكاثوليكيَّة لكنَّهُ رذلها قبل وفاتهِ. وتوفي في زوق ميكائيل في ١٠ ت ٢ سنة ١٨٠٩

وفي عهدهِ عُرف راهب من ملَّتهِ الروم الكاثوليك وعاش بعدهُ ردحاً من الدهر اعني بهِ سابا بن نقولا الكاتب الشهير بالخوري ساباً. كان مولدهُ في حمص وكان ابوهُ من الروم الارثدكس وامُّه كاثوليكيَّة فنشأ على دين والدهِ مدَّةً ثم اهمل نفسهُ للذَّات الدنيا حتى ارعوى وارتدَّ الى الله بعد ان رأى عيشة الرهبان الكاثوليك في دير المخلص فتبعهم في دينهم ثم في طريقتهم النسكيَّة واخذ العلوم العربيَّة عن الشيخين يوسف الحرّ من علماء جباع واحمد البزري. وبعد كهنوتهِ سافر الى رومية حيث اتقن العلوم الفلسفيَّة واللاهوتيَّة وتعلَّم اللغات الاوربيَّة ثم رجع الى الشرق وانكبَّ على الاعمال الخيريَّة الَّا انَّ الامراض دهمتهُ فاحوجتهُ الى لزوم ديرهِ فانقطع الى التأليف وصنَّف كتباً عديدة في اخصّ المعتقدات المسيحية اكثرها لا يزال مخطوطاً طبع منها شيئاً الاديب شاكر افندي البتاروني. ولهُ مصنَّفات اخرى في معظم الابحاث الفلسفيَّة منها رسائل في النفس وجوهرها وخواصها. ومنها كتاب في المنطق نُشر بالطبع وغير ذلك ممَّا عدَّدهُ صاحب تاريخ الروم الملكيين (ص ٧٨—٧٩) ورُقي الى رئاسة رهبانيَّتهِ العامَّة نحو تسع سنوات وكانت وفاتهُ في ايلول من السنة ١٨٢٧ (لهُ بقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

William Ewing, M. A.: ARAB AND DRUZE AT HOME,—A record of travel and intercourse with the peoples east of the Jordan. *London: Jack*, 1907, pp. 180.

رحلةٌ الى بلاد الدروز واهل الوبر القاطنين شرقي الاردن

هذا عنوان كتاب وضعهُ السير وليام ايوين وضمَّنهُ اخبار رحلتهِ من دمشق الى

حوران فالبادية فنواحي الاردن وقد وصف فيهِ بعض ما عاينهُ من الحوادث والمشاهد واطلع عليهِ من عادات سكان تلك الاصقاع في معيشتهم وقراهم للاجانب وزيّنهُ بخارطة للامصار التي اجتاز فيها وباحد وثلاثين رسماً اتخذ معظمها بالة التصوير. وكان بوسع السير وليام ان يتقصّى المواد التي كتب عنها ويدقق بها النظر ليكون تأليفهُ مرجعاً للعلماء يقبلون عليهِ فيقتبسون من فوائدهِ لانهُ حطَّ رحالهُ خمس سنوات في طبرية لكنَّهُ آثر ان يتحفنا بكتاب اقرب للفكاهة منه للعلم الصادق. ومهما كان الامر فاننا نقدّر هديتهُ حقَّ قدرها ونهدي الى حضرتهِ الشكر الجسيم ي. خ.

P. Girolamo Golubovich O. F. M.: Biblioteca Bio-bibliografica della Terra Santa e dell'Oriente Francescano: T. I. 1215-1300. *Leipsig*, . *Harrassowitz*. Gr. 8°, VIII-480 p., 1906.

المكتبة الفرنسيسية لرهبان الاراضي المقدسة

ليس لرهبانيَّة غربيَّة علاقات مع الشرق كالرهبانيَّة الفرنسيسيَّة فانَّ منشئها سكن الشرق مدَّةً. ثم عهد الكرسي الرسولي لابنائهِ حفظ الاراضي المقدَّسة. ومذ ذلك الحين قد مرَّ في هذه البلاد الوف من الفرنسيسيين وهم يصطنعون الخير. وكان العلماء يودُّون ان يجمع احد آثار اولئك الافاضل فيروي من اخبارهم جيلاً بعد جيل ما يُعرف منها مع الدلالة على المصادر المأخوذة عنها وفقاً للمبادئ العلميَّة. وهذا العمل الجليل قد اراد القيام بهِ احد علماء الرهبانيَّة المنوَّه بها وهو حضرة الاب غولوبوفتش الذي اشتهر سابقاً بمصنَّفاتهِ الاثيرة. وها هوذا قد اهدانا الجزء الاوَّل من تأليفهِ الجديد الذي يشمل اعمال الفرنسيسيين في الشرق منذ السنة ١٢١٥ الى السنة ١٣٠٠ مباشرةً بآثار القديس فرنسيس يليها ذكر الديورة الاولى التي انشئت من بعدهِ في سوريَّة كالقدس الشريف وعكة وصور وصيداء وبيروت وطرابلس وحلب. وكانت هذه الديورة داخلة في حيِّز اقليم يُعرف باقليم الاراضي المقدَّسة او اقليم ما وراء البحر. وفي السنة ١٢٤٦ قدم على المواربة اوَّل قاصد رسولي من الرهبانيَّة ذاتها (ص ٢١٥) ثم تبعهُ في منصبهِ غيرهُ كثيرون الى عهد الراهب فرا غريفون الذي سطَّرنا في الشرق ترجمتهُ. هذا ولا يسعنا هنا ان نعدّد كل الرجال العظام الذين نوَّه بذكرهم حضرة المؤلف في اثناء القرن الثالث عشر فنحيل القرَّاء الى مراجعة كتابهِ حيث يجدون عدداً دوَّاً من

المعلومات الخطيرة التي جمعها من موارد شتى وانتقد صحتها وكلها تفيد عن الشرق الفوائد الجمّة. وقد اعجبتنا طريقتهُ في ترتيب هذه الآثار وانتقادها وبيان غثها من سمينها. وممّا لحظناهُ من الاغلاط الطفيفة كتابتهُ للشوبك (Sobal) (ص ١٨٣ حاشية ١) وكتابتهُ للسويديّة عند مصبّ العاصي (Portus Sudi) والصواب (Sudin) (ص ١٨٣ حاشية ٢) هذا وانّنا نستصوب قول الكاتب جاك دي ڤتري (ص ٦٦ حاشية ٣) في اشتقاق اسم الجبل الاسود (امانوس) المجاور لانطاكية. وكان يجدر بالمؤلف ان يضيف دفعاً للالتباس الى اسم القديس سمعان العموديّ لقب «الصغير» وهو القديس الذي بسببهِ عُرف هذا الجبل بالعجيب. امّا القديس سمعان العموديّ الكبير فانّ مقامهُ كان بين انطاكية وحلب — وكذلك نظنّ ان المقصود في الصفحة ٣٦٨ باسم (Mom-minas) هم الموارنة وقد تصحّف الاسم بسوء رواية النسّاخ ل. ٥٠

الانسان ابن التربية

بقلم الاديب جرجي افندي نقولا باز (١٩٠٧ ص ١٠٠)

انّ من يطالع هذا الكتاب لا يلبث ان يتحقّق سلامة نيّة كاتبهِ ورغبتهُ في تنشيط النشوء الحسن وسعيهُ في بيان مضارّ التربية الرديئة. نعم انّنا نسلّم لهُ بكل طيب قلب بانّ الانسان ابن التربية كما عنون تأليفهُ. الّا انّ المنتقد يتبيّن ايضاً في مطالعة الكتاب انّ صاحبهُ في الانشاء وبسط الكلام اقدر منهُ في المبادئ الفلسفيّة الراهنة فتراهُ يطري التربية الحسنة ويتّسع في ذكر الحاجة اليها ويعدّد منافعها الّا انهُ يخلط في كل هذه الاقوال ما ينتقص شيئاً من مزاعمهِ او يضعفها بما لا علاقة لهُ مع التربية. ولو تتبّعنا فصلاً فصلاً هذا الكتاب لوجدنا شواهد على حكمنا هذا. واوّل ما ينتظر القارئ ايضاحهُ تعريف المؤلف للتربية الحسنة وماذا يريد بها ليبني كلامهُ على اساس متين ولئلّا يذهب كلامهُ سدًى كضاربٍ في هواء او حاطبٍ في ليل يصيب مرّةً ويخطئ اخرى. وقد آثر على تعريف التربية ان يفتتح كلامهُ بفصلٍ عمومي في الانسان خلطهُ بامور صحيحة وآراء واهنة فمن ذلك قولهُ (ص ٨) «انّ الانسان ميّال بالطبع الى الفضيلة» وهو قول يحتاج الى بيّنة فانّ مثل العرب يقول انّ «النفس امّارة بالسوء» وتعريف الاسفار المقدّسة هذا الزعم بنصوص عديدة اوّلها ما جاء في سفر التكوين

(٨ : ٢١) حيث قال الله بعد الطوفان: « لا أعيد لعن الارض بسبب الانسان بما انَّ تصوُّر قلب الانسان شرّير منذ حداثته » ومثل هذا كثير في الكتاب المقدَّس يؤيّده الاختبار اليومي وليس فعل التربية الصالحة الّا ان تقوّم في الانسان هذه الاميال المنحرفة. ثم ألحق هذا بفصل آخر « في محاسن العصر » فخرج عن موضوعه اذ رفع الى الثريا الاكتشافات الحديثة وعدَّد بعض المشاهير الذين على زعمه توصّلوا الى هذه الاكتشافات بحسن تربيتهم. ونظم في جملتهم « روسو » الذي انتحر واهمل اولاده مع اللقطاء. فنعم المثل لحسن التربية! وكما انَّ الكاتب لم يحسن تعريف التربية كذلك تراه متحيّرًا متردّدًا في بيان الوسائل التي يجب الالتجاء اليها لنوال التربية الحسنة سواء كان في بيت والديه او في المدرسة وبعد خروجه منها. وقد جعل العلم من اركان التربية دون افراز بين علم وعلم. وكذلك اهمل اكبر عوامل التربية الحسنة وهو روح الدين الذي لا يكاد يأتي بذكره. ولنا ملحوظات اخرى متعدّدة على هذا الكتاب لا يمكننا ايضاحها الّا بمقالات مطوّلة نرصدها لهذه الغاية ان شاء الله ل. ش

شذرات

استدراك اثبتنا في العدد السابق (٦٠٦) قصيدة جميلة وجدناها في مخطوط قديم مرويّة للامام الغزّالي. ثم افادنا من طرابلس الشام جناب الكاتب البارع حكمت افندي شريف بان هذا الاثر قد ورد في الطبعة الحجريّة من كتاب محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار للسيّد الامام محيي الدين العربي. فراجعنا هذا الكتاب (١ : ١٣٩) الذي منهُ في خزانة كتبنا نسخة خطيّة واذا بالقصيدة هناك تروى لشيخ يُدعى ابا الحسن عليّ المسفر لهُ مصنّفات كمنهاج العابدين وكتاب النفح والتسوية وكلاهما يُنسب للغزّالي كما لا يخفى. ثم روى القصيدة التي نشرناها للشيخ المسفر وبين الروايتين بعض اختلافات لكنَّ روايتنا اوسع واضبط في الاجمال تزيد على رواية ابن الاعرابيّ ثلاثة ابيات. وها نحن نثبت الابيات الزائدة او المختلفة في رواية ابن الاعرابيّ تابعين لسياق روايتنا مع ابداء الشكر لجناب المراسل الذي ارشدنا الى هذه الرواية:

اتظنُّون بانّي مَيِّتكم لستُ ذاك الميت والله انا
انا في الصور وهذا جسدي كان جسمي اذ التفَّ السجا

انا عصفور وهذا قفصي كان سجني وقميصي زمنا
اشكر الله الذي خلصني ونفى لي في المعالي ركنا
وطعامي وشرابي واحدٌ وهو رمزٌ فافهموه حسنا
هو مشروب رسول الله اذ كان يسري فطرهُ مع فطرنا
فاهدموا البيت ورشّوا قفصي وذروا الكل دفيناً بيننا
وقميصي مزّقوهُ رمماً وذروا الظلم بعدي وثنا
فحياتي وسنٌ في مقلتي خيبة الموت تطير الوسنا
لا ترُعْكم هجمة الموت فما هو الاّ نقلةٌ من هاهنا
عنصرُ الانفس شيء واحدٌ وكذا الجسم جميعاً عمّنا
وعليكم من سلامي صيّب وسلام الله بدأ وثنا

عود على بدء كنّا كتبنا لحضرة الاب دي قراجيل ليفيدنا عن رأيهِ في صحّة اكتشاف العلامة النكيسوي مواسان للماس الاصطناعي فاجابنا من انكلترة « اني في المقالة التي اثبتهـا في المشرق (٦ : ١٠٧٣) عن استحضار الماس الصناعي لخّصت ما جرى من الجدال في هذا الصدد بين مواسّان واصحاب مجلّة البشير العلمي (Moniteur scientifique) دون ان ابدي في ذلك رأياً ثم بقي الامر مبهماً الى ان عادت اليهِ المجلّة المذكورة ونشرت ما ينفي صحّة الاكتشاف (المشرق ٨ : ٨٢٠) ولمّا توفّي مواسّان في السنة الجارية عاد العلماء الى ذكر هذا الاكتشاف واكثرهم يقرّرهُ بالفعل وينسبون كتمة المجلة السابق ذكرهـا الى الاغراض ومعاكسة مواسان. ونحن لا نأبى ان ننسب الى هذا النكيسوي اكتشافهُ ان تحقّق بالاختبار ومما قرأناهُ في مجلة العلوم العامّة (Rev. Gen. des Sciences, 30 Avril, 1907) ما تعريبهُ وهو لاستاذ كليّة نانسي العلامـة گنتز (A. Guntz) قال (ص ٣٠٢) : « ان كان مواسّان قد نال باختباراتهِ تبلورات تظهر للناظر كماسات فالحق يقال انّ هذه الاجسام ليست سوى بلّورات غاية في الدقّة » فنرى انّ الامر لا يزال مشبوهاً وان شاء الله عمّا قليل تأتينا الاختبارات الجديدة فلا تبقي في الاكتشاف ريباً

أسئلة وأجوبة

س سألنا سيادة المطران الجليل يوسف الدبس الجزيل الاحترام ماذا نعلم من امر القديس

اوتيليوس او اوتل الذي تعيد الطائفة المارونية عيده في ٣ حزيران وعلى اسمهِ كنيسة في قرية كفر سغاب.

القديس اوتيليوس او اوتل

ج بحثنا كثيرًا عن ترجمة هذا القديس في السنكسارات الشرقيَّة وسألنا غبطة السيد البطريرك افرام الثاني الرحماني والاب العلامة بترس من جمعيَّة الاباء البولنديين الذين من ٣٠٠ سنة يدرسون اعمال القديسين وينشرونها فكان محصَّل ما جمعنا من المعلومات من كل هذه المصادر: ١ً ان اسم هذا القديس أوتل. امَّا اوتليوس او هوتليوس فرواية الاسم عينهِ على الطريقة اليونانيَّة او اللاتينيَّة — ٢ً ويُنسب الى مجدل ويُقال لهُ مجدليّ (المكتبة الشرقيَّة للسمعاني ٢: ٢٦٥) اما مجدل فلم يُعرف موقعها. وقد جاء في سنكسار اليعاقبة انهُ كان من مدينة لوقيا (ولوقيا او ليقية بلاد في آسية الصغرى ليست مدينة) — ٣ً يُعيَّد لهُ في ٣ حزيران ويذكر ايضاً في سنكسار اليعاقبة في ٩ تشرين الأوَّل. ويظن حضرة الاب بترس انَّ السنكسار البوزنطي صحَّف اسمهُ على صورة « اتاروس » (Ἅγιος Ἄτταρος) في احد ايَّام حزيران الاتية ٢ و٥ و٦ و٧ — ٤ً لا نعلم شيئاً عن زمن القديس غير انهُ كان قبل القرن السادس او السابع. لورود اسمهِ في الكلندارات القديمة. — ٥ً امَّا اخبارهُ فهذا ملخَّصها عن السنكسارين الماروني واليعقوبي. كان ابوا اوتل وثنيين وتنصَّر هو صغيرًا ثم لمَّا اراد والداهُ تزويجهُ هرب الى مدينة موسطا (كذا) ثم الى القسطنطينيَّة بحرًا ولمَّا اراد النوتيَّة ان يستعبدوهُ ويتَّخذوهُ اسيرًا هاج البحر فكاد الركَّاب يغرقون لولا شفاعة اوتل الذي نصَّرهم وعمَّدهم. ثم جاء في السنكسار اليعقوبي انهُ « بقي عشرين سنة في القسطنطينيَّة الى موت والديهِ فعاد الى وطنهِ وجاء الى سلوقية ثم اتى الى انطاكية ثم بلغ لوقيا وطنهُ فاراد ان يخرج الى البريَّة ليعيش ناسكاً فقصد مار آبا (ولا نعرف من آبا المذكور) لانَّ ديرهُ كان قريباً من لوقيا وترهَّب عندهُ ثم اشتهر بالمعجزات ومن جملة عجائبهِ انهُ ابرأ رجلًا وثنيًّا مصابًا بآكلة فكان شفاؤهُ سبباً لتنصر عشرة آلاف من الوثنيين. ثم اراد رئيس الدير ان يقيم اوتل رئيساً فهرب اوتل فرارًا من الرئاسة واعتزل في البريَّة وسكن صومعةً الى سنة وفاتهِ وكان معهُ رجلٌ يخدمهُ كان شفاهُ من لدغ الحيَّة ». هذا ما امكننا الحصول عليهِ ولعلَّ احد القرَّاء يزيدنا علماً في ذلك ل. ش